محمد عابد الجابري

مواقف

إضاءات وشهادات

المهدي بن بركة

الجـــزء الأول

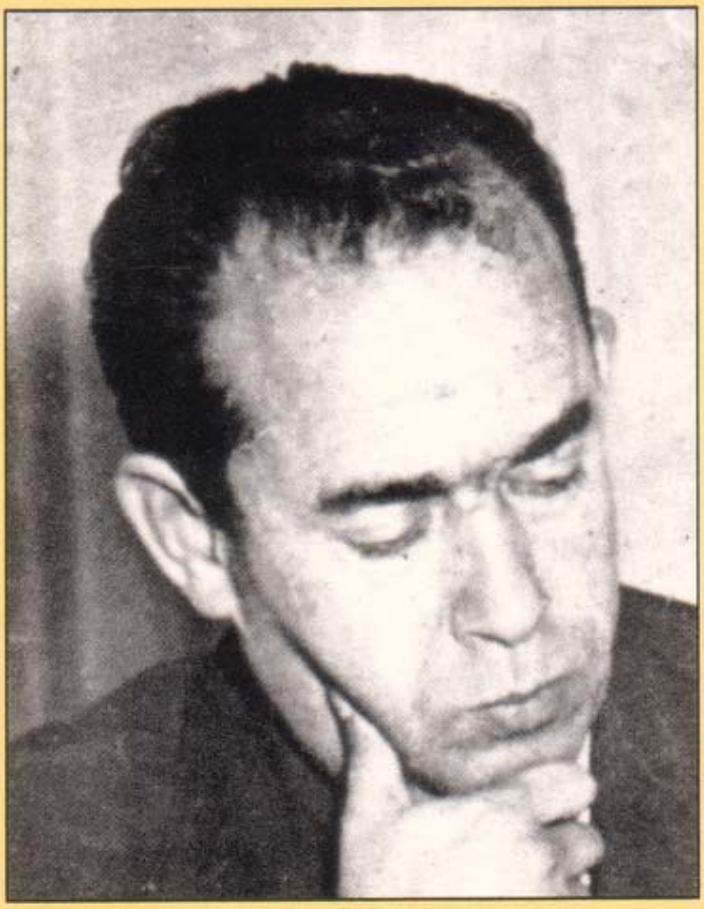

مسؤوليات الاستقلال ومهـام بناء المجتمع الجديد

ملفات من الذاكرة السياسية

6

المهدي: فكر يتحرك وحركة تفكر

مواقف

إضاءات وشهادات

محمد عابد الجابري

– مجموعة كتب صغيرة تصدر عند بداية الشهر. صدر منها:

1- الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.
هل كانت انتفاضة 25 يناير 1959 خطأ؟

2- من الضغوط على محمد الخامس إلى الحكم الفردي.
قمع المقاومين ومؤامرة تصفية الاتحاد 16 يوليوز 1963

3 – البيان المطرب لنظام حكومة المغرب،
المفهوم القديم للسلطة والصراع حول الاختيارت.

4- الديموقراطية في المغرب من التأجيل إلى التزوير.
التنديد بالحكم الفردي والانتصار للديموقراطية.

5- الحزب والنقابة: سياسة الخبز أم خبز السياسة؟

6- المهدي بن بركة: الجزء الأول. مسؤوليات الاستقلال ومهام بناء المجتمع الجديد.

7- المهدي بن بركة: الجزء الثاني: الاستعمار الجديد ... واختطاف المهدي.

الطبعة الأولى غشت 2002

رقم الإيداع القانوني : 2002/27

رمد : 4939-1114

الحقوق محفوظة للمؤلف

يمكن الاشتراك في هذه المجموعة. قيمة الاشتراك في 10 أعداد : 200 درهما (بما فيه أجر البريد).

عنوان المراسلة:

1- زنقة أومفال. بولو -الدار البيضاء. 20150

فاكس: 85 10 50 (212-22)

البريد الالكتروني: jabri@casanet.net.ma

الطبع : دار النشر المغربية
أديما edima

التوزيع : الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة
سبريس sApress

الجزء الأول

المهدي: مسؤوليات الاستقلال...
ومهام بناء المجتمع الجديد

فهرس

مدخل: هكذا عرفت المهدي !.....5

1- على سبيل التوضيح ...
2- اللقاء الأول : ملعب سيدي معروف 1955
3- المقاطعة 11 : المهدي، مبارك وزغلول
4- السي المهدي : "قلنا لهم نحن أيضا لنا كرامة شعبنا"
5- من امتحان البكالوريا ... إلى جريدة العلم!
6- في طريق الوحدة ... "صحفي" وسط المتطوعين...
7- انتفاضة يناير 1959 : النيابة عن المهدي في الصباح ...
8- قل ما فيها ولا تقلها...أنابيب الصهاريج ومقاعد المدرسة.
9- في جريدة "التحرير": مستوى جديد من العلاقة.
10- سيندمون... وضعوه ضدنا وسنستفيد منه في المستقبل!
11- ليركب القطار وبعد ذلك نرى..!
12- "بابور المغرب".. والزعماء يدفعون سيارة قديمة عاطلة.
13- قضية فلسطين عربت المهدي ...
14- المهدي يقفل دوني أبواب السوربون بباريس ...!

المهدي: فكرا وممارسة.....37

1- تذكير ... وتقديم
2- المشروع الوطني بين علال الفاسي والمهدي بن بركة.
3- المهدي : من الدباغة والخياطة وبيع الخضر... إلى الحزب
4- المهدي... وعي بالمشكل ... ومشروع للتغلب عليه.

المهدي ومسئوليات الاستقلال 47

1- "مسؤولياتنا"
2- طريق الوحدة : مشروع نموذجي لبناء الاستقلال
3- شهادة على "طريق الوحدة".

الجماعات القروية أساس للديموقراطية وفضاء للتسيير الذاتي 63

1- من "الجماعة" التقليدية ... إلى الجماعة القروية الحديثة
2- الجماعة كمؤسسة للتسيير الذاتي...
3- "المسألة الأمازيغية" وتهميش المناطق الجبلية

شروط بناء المجتمع الجديد..... 71

لابد من أداة فعالة، لابد من انقلاب في الحزب:

1- مجتمع قديم
2- مجتمع متخلف.
3- كيف سنبني مجتمعا جديدا؟
4- طرق العمل لتحقيق هذه الأهداف.
5- شروط النجاح.
6- الأداة الفعالة.

مدخل

هكذا عرفت المهدي ..!

1- على سبيل التوضيح ...

نفتتح هذا القسم الأول من الكتاب الذي خصصناه للشهيد المهدي بن بركة، وجعلناه جزأين، بسرد زمني/تاريخي لبعض اللقاءات التي كانت للمؤلف معه والتي تكتسي بصورة أو أخرى طابعا شخصيا، علما بأن المقصود من هذا الكتاب ليس كتابة سيرة المهدي، وإن كان سيعرض للحظات أساسية في هذه السيرة داخل الموضوعات التي سيتناولها. إن الكتاب يندرج في سياق موضوعات هذه السلسلة التي جمعنا فيها بين ما يشكل علامات في حياة المؤلف فهو من هذه الزاوية ذاتي/شخصي، وبين ما يشكل لحظات رئيسية في مسيرة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وبعده الاتحاد الاشتراكي، الحزب الذي في إطاره جرت وقائع التجربة السياسية للمؤلف. أما ما يبرر موقع هذا الكتاب من هذه السلسلة، أعني كونه "السادس" فهو أن سنة 1965، السنة التي اختطف فيها الشهيد المهدي وقتل،

تسجل نقطة نهاية لمرحلة من تاريخ الاتحاد الوطني. النقطة التي ابتداء منها ستعرف العلاقة بين الحزب والنقابة تطورات جديدة ستنتهي بالقطيعة مع الجهاز النقابي في الاتحاد المغربي للشغل، وستكون مقدمة للمؤتمر الاستثنائي، وبالتالي لتغيير اسم الحزب إلى "الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية".

هناك جانب آخر لابد من إبرازه وهو أدبيات الاتحاد منذ تأسيسه إلى المؤتمر الاستثنائي قد بقيت تتحرك بصورة أو بأخرى في إطار فكر الشهيد. وقد تكفي الإشارة هنا إلى أن التقرير الذي كان قد أعده للمؤتمر الثاني سنة 1962 والذي اعترضت عليه اعتراض "الفيتو" (حق النقض) عناصر الجهاز النقابي في الكتابة العامة للاتحاد الوطني لم "يطلق سراحه"، داخل الحزب بصفة رسمية، إلا بعد غيبة المهدي النهائية. لقد صدر هذا التقرير لأول مرة عن الكتابة العامة (التي كانت تتصرف خارج الجهاز النقابي منذ اختطاف الشهيد المهدي وبحضور فاعل للشهيد عمر)، في شكل كراس بعنوان "الاختيار الثوري". وقد لقي هذا التقرير من المناضلين ترحيبا خاصا، وأدركوا من خلاله كم من الوقت ضاع ما بين المؤتمر الثاني (1962) الذي حجب عنه التقرير وبين مرحلة ما بعد 1965. ومنذ أن طبع هذا التقرير في 1966 صار مرجعية فكرية وتنظيمية وسياسية للاتحاد، وقد استُشهد بفقرات منه في النصوص التي صدرت في موضوع قرار 30 يوليوز 1972 الذي سجل قطيعة مع الجهاز النقابي. وإذا كان التقرير الإيديولوجي

الـذي صـدر عـن المؤتمـر الاسـتثنائي عـام 1975 قد سجل نقلة نوعـية عـلى مسـتوى الاختيار الإيديولوجي للاتحاد، فإن فكر المهدي بقي حاضرا بصورة أو أخرى في فكر جميع الاتحاديين.

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن فكر المهدي لا ينحصر فيما ورد في نـص "الاختـيار الـثوري"، فعـلاوة عـلى المحاضـرات والحـوارات الصحفية المنشورة في "التحرير" أو في غيرها، هناك نصـوص المهـدي (محاضـرات وأحاديـث صـحفية الخ) خـلال السـنوات الأولى مـن الاسـتقلال قبل 25 يناير 1959، وهي على درجة كبيرة من الأهمية، كما سنرى.

سيتناول هـذا الكـتاب إذن الموضوعات نفسها التي سبق أن تناولـتها الكتـب السـابقة (الديموقراطـية والصـراع مـع الحكم، والحـزب والـنقابة) إضـافة إلى موضوعات أخرى اختص المهدي بالاهـتمام بهـا، أقصـد تركـيز نضـاله، في السنوات التي سبقت اخـتطافه، عـلى فضـح أساليب الاستعمار الجديد والعمل، فكرا وممارسة، في سـبيل الارتفـاع بنضـال شـعوب العالم الثالث إلى المسـتوى الـذي يمكـنها مـن مقاومة هجمة الإمبريالية العالمية)، وسـنعتمد في ذلـك عـلى نصـوص المهـدي التي لم تدخل بعد في التراث الفكري للاتحاد الاشتراكي وبالتالي لم تحتل فيه المكانة الـتي يجـب أن تكـون لهـا[1]. ولا شـك أن كـثيرا مـن القـراء

1- لا بد من التنويه هنا بالعمل الذي قام به الأخ عبد اللطيف جبرو، فقد عمل على جمع كل ما أمكنه جمعه من سيرة المهدي ونصوصه في أربعة كتب، صدرت عن دار النشر المغربية.

سيكتشفون. ربما لأول مرة. أن المهدي الذي عرف بحركيته (ديناميته) على مستوى الممارسة العملية. لم يكن يقل حركية على مستوى الممارسة النظرية.

ولكي لا نُخرج هذا الكتاب. منذ البداية. عن الإطار الذي يندرج تحته. إطار المذكرات السياسية للمؤلف. نبدأ أولا بذكريات عن بعض اللقاءات التي سبق لكاتب هذه السطور أن تعرف من خلالها على الشهيد.

2- اللقاء الأول : ملعب سيدي معروف 1955

تنتمي المرة الأولى التي وقفت خلالها إلى جانب الشهيد المهدي في فضاء المرحلة الأولى من نشاطي في صفوف الشبيبة الاستقلالية بالدار البيضاء. كان ذلك سنة 1955، حين كان الشعب المغربي يستعد لاستقبال الملك الراحل محمد الخامس عند عودته من المنفى[2]. كان الملك الراحل يومذاك في باريس، حيث أقام أياما قبل عودته، وكانت المفاوضات جارية بين الحركة الوطنية وفرنسا. وقبل عودة الملك ببضعة أيام أي قبل 17 نوفمبر 1955 نظم حزب الاستقلال الذي كان يضم آنذاك القسم الأعظم من الحركة الوطنية، وكان المهدي عضوا في لجنته التنفيذية، نظم مهرجانا بملعب سيدي معروف بالدار البيضاء. وكنت يومذاك من شباب "الحزب" (حزب الاستقلال)، ولم يكن عمري يتجاوز التاسعة عشرة. كنت أنا وأربعة شبان

2- نشير إلى أننا سنستعيد هنا فقرات من الحوار الذي أجراه معي الأخ حسن نجمي حول نفس الموضوع ونشر في جريدة "الاتحاد الاشتراكي" بتاريخ 29 أكتوبر 1989.

آخرين من المكلفين بـ"الحراسة" في المنصة، وكان موقعي إلى يمين المهدي، حين بدأ يخطب.

لقد ارتبطت بنشاط الشبيبة الاستقلالية، وبالتحديد الشبيبة المدرسية، ابتداء من عام 1952، حين التحقت ضمن مجموعة من التلاميذ الفجيجيين بالمدرسة الثانوية العربية التي كانت تحت إشراف الحزب، في مدرسة عبد الكريم لحلو أولا، ثم في مدرسة سيدي محمد بن يوسف ثانيا، كما سبق أن ذكرت في "حفريات الذاكرة". كان بعض زملائي من التلاميذ الفجيجيين قد انخرطوا، بصورة أو أخرى، في حركة المقاومة. أما أنا فلم أنخرط فيها على الرغم من أني عشت في محيطها. كان ارتباطي بالشبيبة الاستقلالية عن طريق بعض أساتذة المدرسة التي أشرت إليها، وبالتخصيص المرحوم محمد الجندي الذي كان منفيا إلى الدار البيضاء من وجدة ومن رجال الحركة الوطنية، ومن خلاله كان ارتباطي بالمرحوم بوخريص، ومن ثم بجماعة "المسرح الملكي" بزنقة آيت أفلمان المتقاطعة مع زنقة المناستير. وقد كانت الشخصية الوطنية القيادية في هذا المجال هو المرحوم عبد السلام بناني. لقد تعرفت على هؤلاء كما يتعرف التلميذ على أساتذته.

هنا أيضا عشت نوعا آخر من "القرب" أو قل بداية "القرب" مع رجال الحزب وقادته في الدار البيضاء. هنا في هذا المجال لم أكن مجرد "مشاهد" كما كنت في مجال "المقاومة" بل كنت أيضا من "العاملين"، أساهم مع الشباب من أمثالي

وضمن لجان "التزيين" التي كان يشرف عليها المرحوم عبد السلام بناني وطاقمه. كان مركز الجماعة التي انتمي إليها يقع بجوار "المسرح الملكي" والأزقة الضيقة المجاورة له. ولم يكن عملنا مقصورا على مواسم عيد العرش بل كنا نقوم بنقل "نشرة الحزب" من موقع إلى آخر في الدار البيضاء. كانت المطبعة التي ننقل منها مناشير الحزب (مطبعة الأطلس) تقع في زقاق ضيق بحي درب عمر وهو حي التجارة بالجملة. وكنا نرتاد هذه المطبعة نساعد في لف النشرة، بعد طبعها، في رزم صغيرة نتولى نقلها إلى حيث نؤمر. وكانت جميع هذه التحركات تتم في سرية تامة. لقد كان أخطر شيء يتعرض له الإنسان في ذلك الوقت هو أن يلقى القبض عليه ومعه كمية من "نشرة الحزب". كان السجن هو المآل المحقق.

والغريب في الأمر —وأنا أعبر هنا عن الاستغراب على مستوى الذاكرة لأني لم ألحظ هذا في ذلك الوقت وإنما سمعت به لاحقا— هو أن إحدى الخلايا الأولى للمقاومة في الدار البيضاء قد خرجت من جوف هذه الجماعة التي كانت معروفة بـ"لجنة التزيين". والشيء نفسه يصدق على مركز آخر للحزب في درب السلطان، كنا نرتاده نحن الذين كنا نعد من شبيبة الحزب : الشبيبة المدرسية. كان هذا المركز يقع في بناية تطل على ساحة السراغنة بجوار درب "الشرفاء الطلبة" الذي كان مقرا لمعظم الفجيجيين الوافدين على الدار البيضاء للعمل والتجارة، وكان كثير منهم ممن ينتمي بصورة أو أخرى إلى المقاومة. بجوار هذا

الدرب وبجوار زنقة القاهرة المتوازية معه، وفي الجهة المطلة على ساحة السراغنة، كان يقع مكتب "المقاطعة 11" التي كانت من أنشط فروع "الحزب" في الدار البيضاء. وكنت ممن يرتاد هذا المركز الحزبي الذي كان له دور هام في مسلسل التطور الذي حصل داخل الحزب.

3- المقاطعة 11 : المهدي، مبارك وزغلول

لا تسعفني الذاكرة الآن بأي شيء عن النشاط الحزبي الذي قد أكون انخرطت فيه في "المقاطعة 11". ولكنني مازلت أحتفظ في ذاكرتي بصورتين واضحتين تماما من خلال ترددي عليها. الصورة الأولى صورة سمعية وهي اسم "السي المهدي" (الشهيد المهدي بن بركة) وكان هذا الاسم يتردد هناك بكثرة. أما الثانية فهي صورة بصرية وسمعية معا، صورة المسؤولين عن هذا المركز الحزبي وفي مقدمتهم المرحوم السي مبارك والمرحوم زغلول. لم تكن لي بهما علاقة مباشرة آنذاك –فيما أذكر– ولكنهما سيصبحان من جملة أقرب أصدقائي من المقاومين والاتحاديين مباشرة مع "الانفصال" عن قيادة الحزب وتأسيس "الجامعات المستقلة لحزب الاستقلال" التي ستتحول إلى "الجامعات المتحدة" ثم إلى الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. لم أكن يومذاك على علم بتفاصيل الصراع الذي كان يتحرك في الخفاء داخل الحزب. ولكنني أستطيع الآن، بناء على ما أفهمه اليوم من مضمون الوقائع التي عشتها، أستطيع تزكية الرأي القائل إن حادثة "الانفصال" التي جرت سنة 1959 لم تكن سوى تتويج

لمسلسل من التطور داخل الحزب بدأ منذ أواخر الأربعينات. فعندما أستعيد الآن صورا من هذا المحيط الذي قدر لي أن أتحرك فيه، وأنا مجرد عضو عادي في الشبيبة المدرسية الاستقلالية، أجدها تعكس فعلا عملية ظهور نخب جديدة وقيادات محلية شبه مستقلة داخل الحزب.

إن السي مبارك وزغلول وغيرهما من القادة المحليين للتنظيمات الحزبية والذين كانوا على صلة مباشرة بحركة المقاومة، والذين تحركتُ في محيطهم كانوا جميعا من أبناء القرى والأحياء الشعبية. كانوا عمالا أو أصحاب دكاكين صغيرة، وكانوا أميل من الجيل الذي سبقهم إلى العمل الملموس. ولا شك في أن لجوء السلطات الفرنسية إلى العسف والعنف ودخول العلاقات بين محمد الخامس والحكومة الفرنسية مرحلة الأزمة خصوصا بعد تعيين الجنرال جوان مقيما عاما لفرنسا في المغرب (1951)، إضافة نموذج الحركة الفدائية "الماوماو" في كينيا، وإذاعة صوت العرب المدوية المحفزة المشجعة، لاشك في أن ذلك كله قد جعل هذا الجيل الجديد من الأطر الوطنية أميل إلى الانتقال بالعمل الوطني إلى مرحلة أخرى، مرحلة العمل الملموس. وهكذا فبمجرد ما نفذت فرنسا عملية نفي محمد الخامس (20 أغسطس 1953)، التي مهدت لها باعتقال القيادات الوطنية والإقليمية —وقد أعقب تلك العملية مباشرة نداء من الزعيم علال الفاسي على أمواج صوت العرب يدعو إلى الانتقال إلى العمل الملموس، إلى المقاومة— حتى

تحركت هذه القيادات المحلية الجديدة الشابة، فقامت مظاهرات في كثير من أنحاء المغرب وبدأ الشروع بجد في تنظيم جماعات الفدائيين.

وهكذا فحركة المقاومة المسلحة نشأت فعلا في حظيرة حزب الاستقلال ولكن خارج قيادته، أو على الأقل لم يكن قيامها بأمر منها، إذا استثنينا نداء علال الفاسي الذي جاء في الحقيقة كتزكية للتحركات التي كانت تقوم بها هذه القيادات المحلية الشابة.

لقد كانت هذه القيادات الجديدة بأفكارها وعملها تشكل من الناحية الموضوعية نوعا من التجاوز للقيادات القديمة مع أن كثيرا من أعضاء هذه الأخيرة كانوا بقلوبهم على الأقل مع هذه القيادات الجديدة الثائرة. ومن هذه الزاوية يمكن القول إن بعض جذور "الانفصال" الذي حدث سنة 1959 ترجع إلى تلك اللحظة التي ظهر فيها أسلوب جديد في حقل النضال الوطني والذي سيعرف بحركة الفداء والمقاومة. ومن هنا يمكن أن نفهم كون "المقاطعة 11" كانت في مقدمة فروع الحزب التي قادت ما كنا نسميه "الانتفاضة"، انتفاضة 25 يناير 1959، بينما أصرت قيادة حزب الاستقلال والعناصر التي بقيت في هذا الحزب على نعته بـ "الانفصال". إن هذه المعطيات هي التي تفسر كيف أني سأكون من بين المؤطرين للاجتماع الذي انعقد في سينما الكواكب قريبا من المقاطعة 11 والذي تم الإعلان فيه —وفي اجتماعين مماثلين— عن انتفاضة 25 يناير بالدار البيضاء وقيام

"الجامعات المستقلة لحزب الاستقلال"، كما سبق أن أشرت إلى ذلك في الكتاب الأول من هذه السلسة (ص 58).

4- السي المهدي : "قلنا لهم نحن أيضا لنا كرامة شعبنا"

قلت وأكرر مرة أخرى أن ذاكرتي لا تسعفني بالشيء الكثير عن "النشاط" الحزبي الذي يمكن أن أكون قد شاركت به خلال تلك الفترة التي سبقت إعلان الاستقلال، سوى ما ذكرت من انتمائي، بصورة أو بأخرى للشبيبة المدرسية الاستقلالية. لم أكن عضوا قياديا فيها ولكني أقدر الآن أني كنت بمنزلة "الجندي الاحتياطي"، فلم تكن تستهويني لا "الزعامة" ولا "القيادة"، كنت أفضل دائما عدم التعرض للأضواء. وهذا سلوك لم يكن خاصا بي وحدي بل كان من "طبع" الفجيجيين، هؤلاء الذين جاءوا "من بعيد"، من تخوم الصحراء، حيث لا معنى لـ"حب الظهور" لأن كل شيء فيها، الحياة الطبيعية والإنسانية، ظاهر، كل شيء "بادية"!

ربما كان لهذه "الطبيعة" دور في كثير من جوانب سلوكي الاجتماعي والثقافي والسياسي خلال حياتي كلها. وربما كان لها أيضا دور ما في هذا "الفراغ" الذي أشكو منه على مستوى الذاكرة. والحق أن "الفراغ" من طبيعة الذاكرة البشرية عموما، أو هكذا تبدو لي ذاكرتي، أنا شخصيا، فهي لا تحتفظ في الغالب من "الحاضر" الذي مضى إلا بما كان له معنى في الماضي الذي سبقه أو في المستقبل الذي يليه. ومن هنا كانت ذكرياتنا أشبه ما تكون بمسافات "فارغة" تفصل بينها

"علامات" على طريق الحياة. مسافات قد تطول وقد تقصر ولكنها "فارغة" على مستوى الذاكرة، حتى إذا برزت علامة من تلك العلامات، بتأثير من معطيات "المستقبل" أو من وقائع "الماضي" ملأت ذلك "الفراغ" وأعطته معنى.

أقول هذا وأنا أفكر في الموقع الذي أتذكر فيه نفسي بوضوح كامل، واقفا بجانب الشهيد المهدي بن بركة، وكأني حارسه الشخص، متقدما صف الشباب الذي كلف بحراسة المنصة بملعب سيدي معروف، بشارع الفداء على مقربة من "المقاطعة 11" والأحياء التي ذكرت، والتي كانت من معاقل الوطنية الاستقلالية والمقاومة المسلحة. كنا فريقا من الشبيبة الاستقلالية والكشفية الحسنية حضرنا منذ الصباح إلى الملعب وقد تم ترتيبنا و"الكلام" معنا في البهو الذي يقع تحت منصة الملعب. وقبل أن يحضر "السي المهدي" ومرافقوه كنا نحتل مواقعنا على المنصة. دخل المهدي وسط زحام شديد وهتاف صاخب من كل جوانب الملعب الذي امتلأ والشوارع المحيطة به، مما يقدر عادة بأزيد من مائة ألف شخص.

لم أعد أذكر من خطاب المهدي غير هذه العبارة التي أعقبها تصفيق وهتاف لا حد لهما. قال —بعبارته تقريبا— : "لقد طلب منا الفرنسيون أن نأخذ الاستقلال ونؤجل النظر في عودة محمد الخامس. وقالوا لنا إن الرأي العام الفرنسي يشعر بالإهانة وبمس الكرامة إذا أعدنا الآن محمد الخامس"، وبدون توقف رفع المهدي من نبرة صوته، ملوحا بإحدى يديه القصيرتين،

بينما كانت الأخرى تمسك بجذع العمود الذي ركب فيه الميكروفون. وقال: "قلنا لهم: نحن أيضا لنا كرامة شعبنا. ولدينا كذلك الرأي العام "انتاعنا" وهو لا يقبل شيئا آخر قبل عودة ملكه الشرعي إلى عرشه".

كان ذلك في أكتوبر 1955. سنة الانفراج الذي رافق اضطرار فرنسا إلى الاستجابة إلى مطلب الشعب المغربي وعلى رأسه المقاومة والحركة الوطنية، مطلب إرجاع محمد الخامس والاعتراف باستقلال المغرب. كانت الأولوية في وعي الشعب المغربي لعودة محمد الخامس، ذلك لأن عودة هذا الأخير كانت تعني، في الضمير المغربي، "الاستقلال" في نفس الوقت، فلم يكن أحد يتصور أن يعود الملك من غير أن "يأتي" معه بالاستقلال. أما الاستقلال بمفرده فلم يكن من شرطه في وعي المغاربة عودة الملك. وإذا نحن أردنا التعبير، بنوع من الوضوح القائم على التصنيف، عن وعي الشعب المغربي آنذاك بصدد هذه المسألة أمكن القول: إن الناس كانوا يرون في عودة محمد الخامس رفعا لظلم لحق بالمغرب، ملكا وشعبا، بينما كانوا يرون في الاستقلال حقا من حقوقهم. وكما أن "الحصول على الحق" من دون "رفع الظلم" شيء لا معنى له، فكذلك كان الناس يرون في اقتراح فرنسا الاعتراف باستقلال المغرب أولا ليتم النظر بعد ذلك في مسألة عودة محمد الخامس.

كان ذلك إذن أول اتصال لي مع السي المهدي. كنت بجانبه وكنت أعرفه بالسماع، أما هو فبكل تأكيد لم يكن

يعـرفني. ولكـنه كان عندما يقف بجانب الشبان يتحدث إليهم وكأنـه يعـرفهم منذ سنوات. كان "يصدر الأوامر" إليهم وكأنهم أبـناؤه. وقـد أصـدر إليـنا أوامـر تنظيمـية عـند انتهاء المهرجان وكأنه هو المكلف بنا. لم يكن يضع أي قناع بينه وبين الناس.

5- من امتحان البكالوريا ... إلى جريدة العلم!

في جـريدة "العـلم": أمـا المـرة الثانية التي التقيت فيها مع المهـدي وكانـت هـذه بداية علاقتي الشخصية معه، فكانت يوم إعـلان نـتائج الـبكالوريا المعـربة عام 1957. كنت من المرشحين ذلـك العـام. وبما أن تلك الدورة كانت من الناحية الرسمية هي الـدورة الأولى لهـذا الـنوع "الوطـني" مـن البكالوريا فقد كان هو رئـيس لجنة الامتحان، وكنا حوالي العشرين. قرأ المهدي ساعة إعـلان النتـيجة أسماء الناجحين بنفسه. ونحن متجمعون أمامه وأعضـاء اللجـنة يحـيطون به وكان ذلك فيما أذكر بمدخل كلية العلوم حاليا بالرباط.

وعـندما انـتهى مـن قـراءة أسمـاء الـناجحين، وكنت واحدا مـنهم، أخذنـا ننصـرف، وإذا بـي أسمـع المهـدي يـنادي: "الجابري تعال". اعتراني شعور بالدهشة، خصوصا ونداؤه جاء في صـيغة تحمـل معـنى "الأمـر" لشـخص يعـرفه. تقدمت إليه. وبـدون مقدمـات قال لي: غدا، الساعة الحادية عشرة صباحا، تكـون عـندي بـالمجلس (وكـان يومذاك رئيسا للمجلس الوطني الاستشـاري، وكـان هذا المجلس عبارة عن "برلمان" معين يمثل القوى الوطنية، السياسية والنقابية والمهنية).

ذهبت إليه في الموعد المطلوب، فاستقبلني في الوقت المحدد، وببساطة تامة، وسط قاعة الاجتماعات. ترك مكتبه وجلس أمامي وطاولة الاجتماعات بيننا، وكأننا في اجتماع "مفاوضات"! سألني عما أفعل، وعما أنوي أن أفعل وعن مسقط رأسي وأهلي الخ. ثم قال لي: كانت ترجمتك جيدة في الامتحان (كانت امتحانات البكالوريا آنذاك تشتمل على مادة الترجمة). ثم أضاف : ونحن في جريدة "العلم" في حاجة إلى مترجمين ومحررين. غدا حوالي الساعة العاشرة تكون عند السي "التازي" (الأستاذ محمد التازي السفير وكان يقوم بمهام رئيس تحرير "العلم" في ذلك الوقت). قلت له، محاولا الاعتذار، أنا أعمل معلما بالمدرسة المحمدية في الدار البيضاء، فبادر وقال لي: لا تعتذر، نحن الآن في عطلة صيف. اذهب واشتغل وعندما تنتهي العطلة ننظر في الأمر.

ولما كان الغد، ذهبت إلى جريدة "العلم" فرحب بي الأستاذ التازي وقال لي: حدثني عنك السي المهدي بالتليفون. ثم قادني إلى قاعة بجانب مكتبه فيها عدد من المحررين. كان من بينهم شاب صحراوي نحيف جدا وأسمر، تعرفت عليه، وكنت أعتقد —خطأ— أن الزعيم علال الفاسي هو الذي أتى به إلى "العلم" لأن خال هذا الشاب كان من أصدقاء الزعيم. إنه حرمة ولد بابانا زعيم حزب النهضة الموريتاني الذي كان يقيم في المغرب لأنه هو وحزبه كان يطالب بانضمام موريتانيا إلى المغرب يوم كانت ما تزال تحت الاستعمار الفرنسي، وكان

الزعيم علال الفاسي قد جعل من قضية عودة موريتانيا إلى المغرب قضية وطنية كما هو معلوم. أما ذلك الشاب الموريتاني الذي تعرفت عليه في "العلم" في أول يوم لي بها فاسمه: باهي محمد حرمة[3]، ومنذ ذلك الوقت وصداقتي بالأخ باهي متواصلة متنامية. هناك زملاء أصدقاء آخرون تعرفت عليهم في "العلم" وما زلت أعتز بصداقتهم. أما الزعيم علال الفاسي فقد كان يأتي من حين لآخر إلى جريدة الحزب، يمر جنب قاعة المحررين ويسلم، مواصلا طريقه إلى مكتب الأستاذ التازي القائم بمهام رئيس التحرير. وكثيرا ما كان السي علال يتحدث إلى باهي، خاصة، حديث البسط. أما المهدي فقد كان يحضر كل يوم تقريبا ويمر علينا وسط قاعة المحررين، وكل مرة يخاطبني "أش أخبارك! ". ومن حين لآخر كان يطلب مني، أو يأمرني (فلم يكن الواحد منا يميز في لهجته بين الطلب والأمر)، قائلا: مر عندي في المجلس، غدا أو بعد غد).

6- في طريق الوحدة ... "صحفي" وسط المتطوعين...

طريق الوحدة: لا أتذكر بالضبط كم مرة ذهبت إليه في المجلس و لا لأي غرض. ولكني أتذكر جيدا أن زياراتي له كانت متعددة. وأتذكر أنه ذات يوم قال لي وأنا معه في

---

3 – أوضح لي المرحوم باهي أن التحاقه بجريدة "العلم" لم يكن عن طريق خاله حرمة ولد بابانا، بل إثر مباراة أجرتها "العلم" آنذاك لتوظيف مترجمين. وهذا صحيح فلقد اجتاز المباراة ونجح فيها هو وزميل لنا آنذاك هو محمد الأزرق الذي كان من جملة من التحق معنا بـ"التحرير" يوم صدورها في 2 أبريل 1959).

المجلس الاستشاري، دائما في قاعة الاستقبالات: "ما رأيك في الالتحاق بطريق الوحدة لكتابة تقرير صحفي للعلم"؟ قلت: "في الوقت الذي تريد". قال: "سأتصل بك".

كان العمل جاريا في "طريق الوحدة"، الطريق الذي كان المهدي يشرف على شقه ليربط المنطقة الشمالية التي كانت تستعمرها إسبانيا بالمنطقة الجنوبية، التي كانت تستعمرها فرنسا. وكان المشروع كما هو معروف من مبتكرات خياله الخصب، أو على الأقل هذا ما كنا نعرفه ويعرفه الناس في الداخل والخارج في ذلك الوقت. زارنا السي المهدي ذات يوم في جريدة "العلم"، وقصدني بالكلام فقال: "أنت، غدا تكون في الساعة كذا.. أمام مكان كذا.. وسيمر عليك بنهيمة" (الدكتور بنهيمة وكان آنذاك من الشباب المتحمس العامل مع المهدي)، لتذهب معه إلى "طريق الوحدة".

وفي الموعد المحدد ركبت مع الدكتور بنهيمة في سيارة جيب كان يقودها بنفسه وكان هناك شخص ثالث لا أذكر اسمه. انطلقت بنا السيارة إلى "طريق الوحدة". ولما وصلنا هالني أن وجدت السي المهدي هناك، فقد كنت أعتقد أنه بقي في الرباط. وبفضول صحفي طفولي قلت له: "أريد أن أجري معك استجوابا صحفيا". قطب حاجبيه الغليظين ونظر إلي مستفسرا: "هل أنت مغربي أم أجنبي"؟وأضاف: "الاستجواب الصحفي يكون مع الأجانب ليتكلموا عنا إلى بلدانهم. أما أنت فيجب أن تلبس لباس الشغل أولا، وتذهب إلى فرق المتطوعين

وتكتب عنهم وعن عملهم.. وسأقرأ في "العلم" ما ستكتب. اذهب إذن"؟

7- انتفاضة يناير 1959 : النيابة عن المهدي في الصباح ...

وتوالت اتصالاتي بالمهدي، خصوصا سنة 1958 السنة التي شهدت نشاطا خاصا للإعداد لـ "انتفاضة 25 يناير 1959" ويسميها الأخوة الذين بقوا في حزب الاستقلال بـ"الانفصال"[4]. ليس هاهنا مجال الحديث عن هذا الحدث وملابساته. ولكنني أذكر أن معظمنا نحن المحررين الشبان في جريدة "العلم" كنا منخرطين في العملية ومعنا كثير من عمال المطبعة. كنا مع المهدي بما في ذلك مدير جريدة "العلم" رحمه الله، وكان رجلا طيبا نزيها[5].

---

4 – أشير في هذا المجال إلى ما سبق لي أن ذكرته في الكتاب الأول من هذه السلسة (ص 53) حول تأسيس "الاتحاد المغربي للشباب". ذلك أنه في إطار الإعداد لعملية 25 يناير 1959 طلب مني الشهيد المهدي الحضور في اجتماعات اللجنة التحضيرية للمنظمة التي كان يعمل على تأسيسها، منظمة "الاتحاد المغربي للشباب"، بصفتي أمثل شباب الحزب (أو قسما منه) إلى جانب إخوان آخرين أذكر منهم المرحوم محمد الحيحي الذي كان على رأس جمعية الشبيبة المغربية (لاميج)، والطيب بن عمر الذي كان على رأس جمعية الطفولة الشعبية ، وممثل عن الشبيبة العاملة التابعة للاتحاد المغربي للشغل، وممثل عن الاتحاد الوطني للطلبة لا أذكر اسمه الآن (لعله الأخ إدريس السرغوشني) وآخرين. عقدنا عدة اجتماعات بصفتنا لجنة تحضيرية لتأسيس "الاتحاد المغربي للشباب". ولكن ممثل الشبيبة العاملة التابعة للاتحاد المغربي للشغل نسف العملية في نهاية المطاف.

5– لا بد من الإشارة هنا إلى أن المحررين قد اتصلوا بالمدير المرحوم عبد الجليل القباج، أياما قبل 25 يناير وسألوه رأيه فقال: أنا منذ أسست هذه الجريدة والشخص الذي يأتيني دائما بالتعليمات ويساعدني في حل المشاكل هو السي=

قبل الانتفاضة بأيام ناداني المهدي وقال لي: ستكون مع الإخوان في الدار البيضاء، وستكون في اجتماع سينما الكواكب وستكون من بين المتكلمين في اجتماع الصباح وسألتحق بكم بعد الظهر بعد أن أنتهي من مهرجان الرباط. قلت وماذا تقترح علي أن أقول؟ ضحك وقال: "دبر راسك.. شوف الإخوان هناك. أنت تعرف الإخوان في المقاطعة 11". حضرت اجتماع سينما الكواكب وكان هناك اجتماع آخر في سينما شهرزاد ترأسه الأخ الفقيه محمد البصري وثالث في سينما أخرى قريبا من المدينة تناول الكلمة فيه المرحوم صدقي عبد الوهاب (أما الأخ عبد الرحمان اليوسفي فقد ترأس اجتماعا مماثلا بطنجة في نفس اليوم وكانت هناك اجتماعات أخرى مماثلة بمعظم المدن).

8- قل ما فيها ولا تقلها...أنابيب الصهاريج ومقاعد المدرسة

ومن الذكريات التي علقت بذهني عن المهدي، واحدة تتصل بتكوين الأطر الحزبية في إطار حركة 5 يناير 1959. كان ذلك في "دار التوزاني" بالدار البيضاء، وهي دار كبيرة تقع في طريق مديونة على مخرج المدينة (يومئذ)، وكانت جمعية المقاومة قد "أخذتها" وكان فيها مجموعة من أطفال

المهدي. فأنا مع السي المهدي.. وعندما عرضنا على الشهيد المهدي تحويل جريدة "العلم" إلى لسان الانتفاضة عارض ذلك بقوة، وهذه مسألة ربما تتاح لنا الفرصة لمناقشتها وشرح ما نعتقد أنه الدافع الذي جعل المهدي يعارض اقتراحنا بقوة. (انظر أيضا ما كتبته في هذا الموضوع في الكتاب الأول من هذه السلسلة ص56).

رجـال جيش التحرير بالساقية الحمراء يدرسون —وكان من بين هؤلاء الأطفال من صاروا شبانا شاركوا في تأسيس البوليزاريو.

بعـد انتفاضـة 25 يـناير بأسـابيع أصبحت هذه الدار مدرسة لـتكوين الأطـر للحركة الجديدة، وكان المهدي هو المشرف على التكوين وكنت من بين المكوِّنين (بالكسر). وكان المهدي يجمعنا ويتحدث إلينا عما يجب أن نركز عليه دروسنا. وذات مرة أخذ يحدثـنا عـن "العدالـة الاجتماعية"، و"تكافؤ الفرص" و"الفوارق الاجتماعـية" الخ، وعندما انتهى وخرجنا إلى الاستراحة تحلقنا حولـه، وقلـت: "لقـد حدثتـنا عـن العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفـرص الخ، فـلماذا لا نقول: "الاشتراكية" بدل هذه التعبيرات المخـتلفة"؟ نظـر إلـي رافعـا حاجبـيه الغلـيظين، وقـال: "لا تسـتعجل. قـل مـا فـيها، ولا تقـلها إلى أن يحـين وقـتها"، ثم أضاف: "الناس عندنا مازالوا واقعين تحت الدعاية الاستعمارية فيعتقدون أن الاشتراكية هي الشيوعية وأن الشيوعية هي الكفر. نحـن حـركة وطنـية جديـدة تـريد بـناء مجتمع جديد... نريد التحرر من الاستعمار القديم والجديد.. هل فهمت"؟.

ومـن الذكـريات الـتي تحضـرني عـن لقاءاتنا مع الشهيد في "مدرسـة تكوين الأطر" بدار التوزاني، هذه الواقعة: كنا جماعة مـن "المكونـين" مـتحلقين حـول الشـهيد، وكـان الحديث يدور حـول أمـور ثقافـية لهـا علاقـة بالتعلـيم في القـرويين و"عقلية" المـتخرجين مـنها. أذكـر أن المهـدي تدخـل وقـال: "القرويين" مركـز الوطنـية ولكـن السياسة شيء آخر. ثم أضاف: إن من لم

"يكسر" رأسه مع المسائل الحسابية من نوع الصهريج الذي تملؤه أنابيب مياه وتفرغه في نفس الوقت أنابيب أخرى، ليعرف متى وكيف سيمتلئ الصهريج، إن من لم "يكسر" رأسه مع هذا النوع من المشاكل لا يستطيع أن "يعمل" السياسة في العصر الحاضر.. فعلا كانت السياسة عنده عمليات حسابية... ومعلوم أنه كان متخصصا في الرياضيات.

وفي مناسبة أخرى كنا نتحدث عن طريقة بعض الكتاب في التفكير والكتابة ممن ينتمون إلى الجيل القديم، على الأقل من الناحية التعبيرية، فعلق المهدي قائلا: "إن من لم يجلس على الكرسي في المدرسة يضع ذراعا على ذراع على الطاولة، ولا يرفع يده إلا عندما يريد الجواب عن سؤال الأستاذ، إن من لم يمر بالمدرسة التي من هذا النوع لا يستطيع التفكير بمنهجية".

9- في جريدة "التحرير": مستوى جديد من العلاقة

كنا بعد 25 يناير 1959 بدون جريدة إلا جريدة "الطليعة": الأسبوعية التي كانت لسان الاتحاد المغربي للشغل. لقد كنت ضيفا "عليها"، مكلفا بما يتعلق بحركة 25 يناير. ومع أن الحركة كانت في بدايتها ولم تكن هناك بعد اصطدامات تذكر، بين الحزب والنقابة —على الأقل ظاهريا— فقد كنت أشعر أنني في غير مكاني، لا بصفتي الشخصية، بل كمكلف بتغطية وقائع حركة 25 يناير وأنشطة "الجامعات المستقلة". لم أكن أجد ما يكفي من المساحة في الجريدة، بل كنت أشعر أن أخبار الحركة لم تكن تحتل المكانة اللائقة بها بين صفحات الجريدة.

قلت للمهدي ذات يوم، بصيغة تحمل نغمة العتاب: "لماذا لم توافق على أخذ "العلم" مع أن الأغلبية كانت معنا: محررون، عمال، مدير"؟ سكت قليلا ثم قال: هذه مرحلة جديدة. وسنصدر "الجريدة" جديدة.

فعلا صدرت التحرير في يوم 2 أبريل 1959، وكنت أقوم فيها بمهام سكرتير التحرير إلى جانب الأخ عبد الرحمان اليوسفي رئيس التحرير والأخ محمد البصري مدير الجريدة. ومن يومها انتقلت علاقتي بالشهيد المهدي إلى مستوى آخر، هو نفس المستوى الذي ارتفعت إليه علاقاتي مع الأخوين البصري واليوسفي.

من بين الاتصالات التي كانت لي مع الشهيد المهدي في هذه المرحلة، والتي تستدعيها الذاكرة الآن بالمناسبة، الحادثة التالية: كنت في جريدة "التحرير" قد أخذت المبادرة وبدأت سلسلة من المقالات حول تأسيس الاتحاد الوطني، وقعتها باسمي وجعلت عنوانها الدائم عبارة "لا حزبية بعد اليوم"، وهي عبارة قالها المهدي في خطاب له في مهرجان بالرباط عقب تأسيس الاتحاد الوطني للقوات. صدرت المقالة الأولى في عدد يوم 1959/9/9، وفي الصباح قبل الظهر كلمني المهدي بالهاتف من الرباط ليقول لي: "إن ما كتبته اليوم جيد.. ولكن في الفقرة الفلانية التي قلت فيها كذا وكذا عن حزب الاستقلال غير ملائمة، ويجب أن لا تنسى أن هذا الحزب كان هو حزب الحركة الوطنية ونحن نريد أن نجدد هذه الحركة. فلا تنس

الماضي". قال هذا لأنني كنت وصفت -بدافع الحماس والسجال- حالة الحزب في السنوات الأولى من الاستقلال، بما يبرز الفوضى والاضطراب الذين كان يعاني منهما...

فعلا كان المهدي ينظر إلى العملية، سواء في صيغتها الأولى (الجامعات) أو عند تحولها إلى "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية"، على أنها عملية تجديد للحركة الوطنية وليس انفصالا عنها (وهذا ما سنشرحه فيما بعد).

10- سيندمون... وضعوه ضدنا وسنستفيد منه في المستقبل!

وها هي ذكرى أخرى تحضرني. كان ذلك عندما صدر تعديل لقانون الحريات العامة، وكان هذا القانون ليبراليا إلى أبعد حد. أذكر أننا كنا في "التحرير"، وكنا نتحدث عن هذا القانون الذي وضع أصلا لإفساح المجال لخصوم حزب الاستقلال، في إطار الحرب التي شنت آنذاك ضد هذا الحزب من طرف "القوة "الثالثة" من المتعاملين مع المصالح الاستعمارية الفرنسية وغيرهم. كنا نخاف من أن يكون ذلك القانون طريقا لقيام أحزاب "عميلة" لجهات خارجية. كنا نفكر هكذا لأننا كنا ما نزال في السنوات الأولى من الاستقلال، وكانت سنوات صعبة حدثت فيها تمردات... وكانت الأخطار محدقة بالمغرب من كل جهة، فكنا نفكر تفكيرا وطنيا.. والوطنية تقوم على الوحدة و"الجمع". كنا نعتبر أنفسنا حركة وطنية جديدة تواصل رسالة الحركة الوطنية قبل الاستقلال. كنا ننظر إذن إلى قانون الحريات العامة "الليبرالي جدا" على أنه يستهدف، أو

قد ينتج عنه، تمزيق الصف الوطني... وهذا كان مصدر تخوفنا. كان الحديث إذن يدور في هذا الموضوع.. وفي الأخير علق المهدي وقال: "اتركوهم. يريدون أن يضربونا الآن بهذا القانون. ولكننا سنكون في المستقبل أكثر المستفيدين منه. إن موقعنا هو المعارضة. وسنحتاج إلى هذا القانون وسنستفيد منه، وسيندمون عليه وسيحاولون التراجع عنه، وحينئذ سندافع عنه"... هل أحتاج إلى القول إن ذلك هو ما حدث بالفعل؟

11- ليركب القطار وبعد ذلك نرى..!

كان الشهيد كثير الاتصالات، خاصة مع الشباب. ولم يكن يتحرى دائما صدق انتماء الشاب للاتحاد أو عدم انتمائه بالمرة. لم يكن له حواريون ولا كان يتعامل من موقع الزبونية! كان مفتوحا للجميع. وكان يعرف أن ذلك قد تنجم عنه أخطاء في الاختيار، ومع ذلك كان يفضل دفع الأشخاص إلى العمل وجعل التجربة هي التي تحكم. حدث يوما أن عين شخصا في مهمة –لا داعي هنا لذكر الشخص ولا المهمة– فأثار ذلك انتقادات كثيرين ممن يعرفون ذلك الشخص. قلت له بلهجة احتجاجية: "لماذا عينت فلانا في كذا وهو غير اتحادي، أو على الأقل لا يطمئن إليه الذين يعرفونه، وأنا أيضا لدي مثل هذا الشعور"؟ قال: "لو طبقنا مقياس "الاطمئنان" إلى الأشخاص لبقينا مجموعة صغيرة يغازل بعضنا بعضا". ثم أضاف: "الأطر الشابة من جميع الأصناف يجب أن نعمل على استقطابها

حتى لا تذهب إلى الجهة الأخرى. فلا بد أن نفتح الباب لجميع من فيه "شيء من الضوء" ثم نترك التجربة تحكم"!

فعلا كانت خطة الاتحاد في السنوات الأولى من تأسيسه، وإلى الثمانينات، تقضي باستقطاب الأطر والفنيين المغاربة وضرب حصار على الحكم في هذا المجال. وكان بعض الاخوة يعتقدون أن الحكم عندما يحاصر في هذا المجال، وهو سيحتاج إلى الأطر لا محالة، سيضطر إلى الاتصال بالاتحاد و"التفاوض"!

بالفعل كان الحكم يعاني من هذه الخطة التي سلكها الاتحاد في هذا المجال يوم كانت الأطر المغربية قليلة. ولكن عندما أخذ عدد المغاربة المتخرجين في مختلف الاختصاصات يرتفع حصل فائض ... وقام نزاع —علني أو صامت— في صفوف الاتحادَ بين "الأطر" وبين القائمين على التنظيم الحزبي في الأحياء والمعامل. ولم يختلف رأي القيادة الحزبية إلا عندما حصل فيها وهن في السنوات التي مرض فيها المرحوم عبد الرحيم. كان رأي المرحوم في هذه المسألة هو نفس رأي المهدي. في أواخر السبعينات كانت هناك شبه حرب بين القائمين على التنظيم وبين "الأطر"، في الرباط خاصة، وكان المرحوم عبد الرحيم يقدر وجهة نظر القائمين على التنظيم، ولكنه كان ينظر إلى المسألة بنفس المنظار الذي كان الشهيد المهدي ينظر به إليها. قال لي ذات يوم وكنا نتحدث في الموضوع : "يجب على القائمين بالتنظيم أن يدركوا أنه لا يمكن بناء اقتصاد أو تسيير دولة بدون فنيين. ونحن لابد لنا من كسب واستقطاب أكثر ما

يمكن من الأطر. لنفتح أبواب قطار الاتحاد للجميع ليركب، ومن لم يتحمل طول السفر ونزل في محطة من المحطات سيعوض بآخرين".

12- "بابور المغرب".. والزعماء يدفعون سيارة قديمة عاطلة

ومن الذكريات التي بقيت لاصقة في ذهني المشهد التالي: كنا في الجريدة (التحرير) حين قال لي الشهيد، وكان الأخ البصري حاضرا: "إننا سنأتي عندك في منزلك أنا والفقيه وبعض الإخوان لنشرب كأس شاي بعد التاسعة ليلا. ولكن أنبهك إلى شيئين: أولهما إننا سنأتي للمذاكرة لا للعشاء، فلا عشاء، وإذن الشاي وحده يكفي. وثانيهما أعطينا الشاي واتركنا. إنك لن تحضر معنا. اذهب لتنام".

حوالي الساعة التاسعة مساء وصل المهدي والفقيه إلى منزلي بشارع الناضور —آنذاك— على سيارة هذا الأخير، وكانت من نوع مرسيديس القديمة، ووراءهما سيارة صغيرة من نوع أربعة أحصنة (كاتر شوفو)، نزل منها المرحوم علي يعتة ورفيقين له (لم أعد أتذكر بالضبط من هما! ربما بورقية والعياشي) دخلوا. وتأخر المهدي ليقول لي: "إننا سنحاول مع الأخوان، إذا كان من الممكن، التنسيق بيننا وبينهم في الانتخابات البلدية المقبلة (كان ذلك في أوائل يونيو 1963 وكان من المقرر إجراء انتخابات جماعية في يوليوز من نفس السنة).

أعطيتهم الشاي وأغلقت باب "الصالون" وانصرفت. وحوالي الواحدة صباحا شعرت بهم يحاولون الخروج بدون إزعاج "أهل

الدار". خرجت إليهم وأنا لابس نظارات... فقال لي المهدي "أما زلت ساهرا؟".. آه نعم، أرى النظارات! كنت تقرأ.." ثم أضاف: "اسمع، أنا قبل أن أنام أقرأ دائما في "الكتب الكبار"، عليك أن تهتم بالكتب الكبيرة، كتب الأصول حتى تفهم المقصود ".

ولما أرادوا الخروج، وكان الليل باردا، امتنع محرك سيارة الأستاذ علي يعتة عن الحركة، فما كان من زعماء الحركة الوطنية آنذاك إلا أن هبوا جميعا يدفعون الـ"كاتر شوفو".. فقلت في نفسي "فشل الاجتماع".. "بابور المغرب عمرو ما يقلع". كان المرحوم علي يعتة معروفا في ذلك الوقت بسيارته الشخصية والتي كانت من نوع أوبيل روكور، صفراء. ولكنه كان يستعمل الـ "كاتر شوفو" للتنكر والتمويه على البوليس.

13- قضية فلسطين عربت المهدي ...

ومن الذكريات التي تحضرني الذكرى التالية: حينما عاد المهدي من زيارته الأولى إلى مصر على عهد جمال عبد الناصر.. وكان قد سبق لي معه نقاش في سنة 1959 أو 1960 حول المشرق العربي، وكان يومئذ يجهل المشرق العربي وذا ميول غربية ككثير من عناصر النخبة المغربية، كنت أنا أدافع عن الحركة التحريرية العربية، وكان هو ينتقد "العرب" ... وتطور النقاش بيننا وحسمه وهو يهم بالمغادرة، قال: "ألم تسمع بذلك الفيلسوف الإنجليزي – الذي قال "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا"، وانصرف ولم يترك لي مجالا للإجابة. وبقيت في

نفسي.. فلما عاد، من غربته الأولى، وكان قد زار خلالها مصر وسورية والتقى بجمال عبد الناصر وزعماء حركة التحرير العربية، قلت له عندما زارنا بالجريدة : "كيف رأيت مصر وجمال عبد الناصر وزعماء سورية... فأخذ يحدثني بإعجاب.. فقلت: "آه.. لم يعد الشرق شرق والغرب غرب!"، فرفع حاجبيه بتعجب وقال وهو يضحك: "أما زلت تذكر؟". ثم أردف في جدية حديدية وقال: اسمع هناك الاستعمار والشعوب المستعمرة، هناك الاستعمار الجديد والاستقلال المزيف، هناك الصهيونية وفلسطين.. هذا هو التقسيم الحقيقي للعالم اليوم. وعندما انصرف أخذت أفكر في هذا. وقلت في نفسي: "سبحان الله: قضية فلسطين عربت المهدي". بالفعل لقد عربت قضية فلسطين المهدي وعبد الرحيم وعمر.. وربما آخرين خارج الاتحاد.

14- المهدي يقفل دوني أبواب السوربون بباريس ...!

على أن أهم واقعة كان لها دور حاسم في المسار الذي سلكته في حياتي قد جرت في باريس أثناء المرحلة الأولى من غربة المهدي، وبالضبط في أوائل سنة 1960. لقد سبق لي أن أشرت في "حفريات في الذاكرة" إلى أنني قضيت السنة الجامعية الأولى في الجامعة السورية بدمشق (1957-1958)، وأني قررت البقاء في المغرب ومتابعة دراستي بالرباط حيث كانت قد افتتحت كلية الآداب. وهكذا بدأت الدراسة في قسم الفلسفة مع أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عزيز الحبابي ابتداء من أكتوبر 1959.

وفي نهاية السنة الدراسية فوجئت بسقوطي في امتحان الانتقال إلى السنة الثانية الشي الذي استوجب خوض غمار دورة أكتوبر. لقد كنت متيقنا من صحة إجابتي وكلما حاولت استفسار الأستاذ عن السبب في تلك النتيجة السلبية تجنب الإجابة إلى أن كان يوم من أيام أول عطلة الصيف حين أخبرني زميلي وصديقي الأستاذ محمد إبراهيم بوعلو –وكنا ندرس معا– أن الأستاذ قال له: أبلغ صديقك أنه سينجح في دورة أكتوبر، لأنه ناجح فعلا في دورة يونيو. وإنما أردت أن أجعله يفهم أن الدراسة في سورية أو في المشرق العربي لا تعني اكتساب حصانة ما!

لم يكن هناك سبب لمثل هذا التصرف من أستاذنا الكبير. وبما أنه كان من حزب الشورى وكان يعرف أنني من الاتحاد الوطني، وأني أعمل في "التحرير"، فقد شككت أن يكون لهذا دور ما في ذلك التصرف، خصوصا وقد كان خصما للشهيد المهدي إذ كان يكتب في أسبوعية "الديموقراطية" التي كان حزب الشورى يصدرها بالفرنسية بينما كان المهدي يكتب في أسبوعية "الاستقلال"، وقد جرت بينهما مساجلات حزبية على صفحات الجريدتين. غير أن هذا الاحتمال بقي عندي مستبعدا، لأن زملاءه في الحزب (عبد الهادي بوطالب وأحمد بن سودة ...) كانوا أعضاء في الكتابة العامة للاتحاد، وكان هو نفسه أميل إلى موقفهم من موقف الذين بقوا مع زعيم الحزب محمد حسن الوزاني. وعلى كل حال، لم يكن أمامي إلا أن

أنتظر دورة أكتوبر. ومر الامتحان ونجحت. وبدأت في متابعة الدراسة في السنة الثانية وأستاذنا الرئيسي هو نفسه الدكتور الحبابي. ومع أن علاقته بي قد تغيرت تماما، إذ صار يعاملني كصديق، فقد بقي في نفسي خوف من تكرار الحادثة السابقة أو ما يشبهها، معه أو مع غيره من الأساتذة، فقررت السفر إلى باريس ومتابعة دراستي في السوربون.

غادرت "التحرير" إلى باريس وسجلت فعلا في السنة الأولى فلسفة، باعتبار أن السنة التحضيرية Propédeutique قد عملتها في دمشق والسوربون تعترف بها. وفي نفس الأسبوع قدم الشهيد المهدي إلى باريس فذهبت لزيارته في منزل قنصل المغرب يومذاك الأخ عبد الحفيظ الشامي. وبعد دردشة قصيرة قال لي المهدي : "ما الذي أتى بك إلى هنا؟". قلت له جئت لأدرس، لقد سجلت في السوربون. فقطب حاجبيه كاتما غضبه وقال : "هل أنت أحمق؟ والجريدة"؟ حكيت له مشكلتي في كلية الرباط، وقلت: "إني أخاف أن يسترسل الأمر هكذا فأضيع الدراسة الجامعية؟". فرد علي قائلا: "ما حكيت ليست مشكلة تستوجب مجيئك، لابد أن ترجع هذا الأسبوع؟". قلت: "ولكن الدراسة هنا في السوربون أفضل؟". قال : "لا تغتر: السوربون وضعها الفرنسيون للدعاية وهي "تفرخ" المتخرجين للعالم الثالث! وأنت تعودت على الدراسة بنفسك. والفلسفة لا تحتاج إلى أستاذ". ثم أضاف : "يجب أن تفكر في الفراغ الذي ستتركه في "الجريدة"، وبدون موجب"؟

غـادرت غـير مقتـنع. لقد صممت على الدراسة في باريس، ولم يكـن لـدي مشـكل لا في التسـجيل ولا حـتى مـن الناحـية الماديـة، فلقـد كـان هـناك أقـارب، عمـال وتجـار، اسـتقبلوني بحفـاوة ومسـتعدون لـيمدوني بمـا أحـتاجه، وعـائلتي تدفـع لعائلتهم في المغرب. هذا فضلا عن إمكانية الحصول على منحة. وأكـثر مـن ذلك كانت مشكلة السكنى محلولة. كان هناك شاب في مثل عمري، من أقاربي من جهة والدتي، هو "حمو بناصر". كـان موظفـا في سـفارة المغـرب وكـان قد حصل على شقة تابعة للسـفارة في الطـابق الأعـلى لإحـدى العمـارات. أعطـاني الشقة وذهب هو ليسكن مع بعض معارفه من البلد.

تـرددت عـلى مـنزل قنصـل المغرب مرات للغذاء مع المهدي وللدردشـة... وفي كـل مـرة كـان يـلح علـي بالرجوع إلى المغرب فكنـت أصـر على البقاء. وذات يوم، وكان قد مضى على مقامي بـباريس نحـو شهر، فوجئت بقريبي حمو بناصر يزورني ليقول لـي مـا يلـي: "لقـد كلفـني السـي المهدي بإقناعك بالرجوع إلى الجريدة، وألح علي إلحاحا لأقنعك بكل الوسائل".

تأثـرت كـثيرا: أن يضـطر المهـدي إلى الاسـتعانة بـأحد أقـاربي؟! قـررت الـرجوع. وهاتفـت الشهيد المهدي لأقول لـه "أنا راجع إلى المغرب غدا أو بعد". رد علي قائلا: "هكذا يكون الرجال".

المهدي: فكرا وممارسة...

1- تذكير ... وتقديم

أبـرزنا في الكـتاب الخـامس كيف أن "الزاوية" كانت النموذج التنظـيمي الـذي حكـم نشـأة "الحـزب" في المغـرب، وكـيف أن الـتطور الداخلـي الـذي عرفـته الحركة الوطنية من خلال الأجيال الجديـدة الـتي أفرزها التطور العام في المجتمع المغربي خلال عهد الحمايـة، قـد أدى في الـنهاية إلى تلـك الأزمـة الـتي عـرفها الحـزب/الـزاوية في السنوات الأولى للاستقلال والتي بلغت ذروتها سـنة 1958، ومـن ثمـة إلى "انتفاضة 25 يناير 1959" التي كانت خروجا أو تمردا -لا فرق- على النموذج : الزاوية.

وإذا كانـت القوتـان اللـتان تشـخص فـيهما هذا التطور وسارتا بـه إلى نهايـته، أعـني المقاومـة والـنقابة، قـد عكستا التطور العام الـذي حصـل في المجتمع المغربي على مستوى الهجرة من البادية إلى المديـنة (المقاومـة) مـن جهـة، وعلى مستوى "التصنيع" ونشوء فـئة العمـال (الـنقابة) مـن جهـة أخـرى، فـإن القـوة الثالثة التي ستشـكل مـا يمكـن تسـميته بـ "النخبة السياسية المغربية" كانت

نتيجة للتطور الذي تم على مستوى التعليم. ومن هنا كان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية الذي دشن قطيعة مع نموذج الزاوية قد عكس في تركيبه، بقوة ونصوع، هذا التطور الثلاثي الأبعاد الذي عرفه المجتمع المغربي على عهد الحماية.

لقد أبرزنا في الكتاب الأول الظروف التي تم فيها هذا التمرد على الزاوية/الحزب الذي توج بقيام الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وأوضحنا كيف أنه كان تكتيلا للقوى التي كانت تمثل تيار التغيير، وبالتالي المعارضة الجذرية للموروث الذي لم تتمكن الحركة التحريرية في المغرب من تصفيته وتجاوزه، بسبب الظروف التي عجلت باستقلال المغرب من خلال مفاوضات إيكس ليبان. وتعرفنا في الكتاب الثاني على ما تعرضت له القوة المنحدرة من حركة المقاومة، داخل الاتحاد الوطني، من قمع متواصل استهدف تصفيتها واحتواء رجالها. وتوقفنا في الكتاب الثالث لنبرز المضمون الاقتصادي الاجتماعي والسياسي لذلك الصراع الذي اتخذ شكله العنيف الأبرز في المسلسل القمعي الذي استهدف -كما قلنا- تصفية إرث المقاومة وجيش التحرير. لننتقل بعد ذلك إلى الكتاب الخامس الذي خصصناه لـ"الحزب والنقابة" داخل الاتحاد الوطني نفسه. وفي هذا الكتاب أبرزنا كيف أن ضرب القوة الثانية (النقابة) قد تم من خلال تهديد الحكم لقيادة الجهاز النقابي بوضعها أمام اختيار أحد أمرين: إما "امتيازات" العلاقة السلمية مع الحكم، وإما الأخطار التي

تنجم عن التمسك بـ "شرف المعارضة". وقد اختار الجهاز النقابي "سياسة الخبز" على خبز السياسية، وكان ذلك على حساب الحزب، على حساب المشروع التحرري الذي بشر به الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

ويأتي هذا الكتاب السادس (بجزئيه) وقد خصصناه للشهيد المهدي بوصفه الشخصية التي مثلت القوة الثالثة من القوات الشعبية المكونة للاتحاد، والتي تشخص –كما قلنا– ما يمكن أن نطلق عليه اسم "النخبة السياسية". وبما أننا نتحرك في هذه السلسة داخل "ملفات الذاكرة السياسية" وفي مجال "المذكرات" فقد كان لابد من الانطلاق من "كيف عرفت المهدي"، ومتابعة خط سيرته ومحنته إلى ظروف تصفيته. ويبقى علينا الآن أن ننتقل إلى مشروعه الفكري.

2- المشروع الوطني بين علال الفاسي والمهدي بن بركة.

لقد انصرف اهتمام جميع الذين كتبوا عن الحركة الوطنية والأحزاب السياسية في المغرب، من أجانب ومغاربة، الفاعلين السياسيين منهم والباحثين الأكاديميين، إلى رصد جانب "الممارسة" وحدها: ممارسة العمل الوطني، السياسي والمسلح، من أجل استرجاع الاستقلال، وممارسة العمل السياسي الحزبي بعد الاستقلال. أما الاهتمام بالجانب الفكري فقد ظل غائبا إلا ما كان من محاولات في فكر علال الفاسي، لا كصاحب مشروع

وطني، بل ككاتب خاض بقلمه في مجالات فكرية مختلفة. هذا النوع من عدم الاهتمام بالمشروع الوطني، النهضوي التنموي السياسي، في فكر الحركة الوطنية المغربية كان بسبب تلك الظاهرة التي طبعت تاريخ هذه الحركة، أعني إعطاء الأولوية للسياسي على الثقافي، وفي نفس الوقت تكريسا لهذه الظاهرة، مما جعل مقولة "أولوية السياسي على الثقافي في المغرب" مقولة تقال بإطلاق، بدون استثناء ولا نسبية.

والحق أنه إذا كان رجال الحركة الوطنية المغربية رجال فعل لا رجال فكر، وإذا كان الذين فكروا أثناء الفعل قد فعلوا ذلك بصمت، فإن الإنصاف للحقيقة والتاريخ يقتضي إبراز أن كلا من علال الفاسي والمهدي بن بركة يشكلان استثناء في هذا المجال. وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار مكانة هذين الرجلين في الحركة الوطنية المغربية وموقعهما في سياق تطورها وجب القول إن الحركة الوطنية المغربية كانت تتحرك في إطار مشروع فكري متميز على عهد الحماية عبر عنه علال الفاسي في كتابه "النقد الذاتي" بأجلى وأوضح ما يمكن، وأعاد "كتابته" الشهيد المهدي.

هناك "انفصال" بين الرجلين، ما في ذلك شك. ولكنه انفصال يقع داخل "الاتصال" وليس خارجه. إن "الاتصال" بين فكر الرجلين قائم وبقوة على مستوى "الفكرة الوطنية"، على مستوى "نحن" المغاربة، و"الآخر" الاستعمار. أما الانفصال فيرجع إلى اختلاف مرجعية الرجلين: مرجعية علال الفاسي

كانت هي نفسها المرجعية السائدة أثناء العمل الوطني في العالم العربي والإسلامي زمن الاستعمار المباشر، والتي يحضر فيها بقوة الفكر السلفي التحريري، أما مرجعية المهدي بن بركة فقد كانت تنتمي هي الأخرى إلى نفس المرجعية السائدة في العالمين العربي والعالم الثالث عموما زمن ما بعد الاستعمار المباشر، أي ما كان الشهيد المهدي يفضل تسميته بـ"الاستعمار الجديد"، وهي مرجعية كانت مسكونة بهم "المستقبل"، هم التحرر من التبعية للاستعمار، هم البناء والتقدم.

هذا على المستوى العام، أما على المستوى الخاص فيمكن التمييز بين مشروعي الرجلين من خلال ربط فكر علال الفاسي بفاس، فاس الزاوية وفاس القرويين، وبربط فكر المهدي بالرباط، رباط الحرفيين وليس رباط "المخزن"، رباط التعليم العصري المخصص لأبناء المغاربة المسلمين وليس المخصص لأوربيين ورواده من المغاربة، (ليسي مولاي يوسف)، التعليم الذي أعطى الحركة الوطنية المغربية منذ بداية الأربعينات جيلا من الشبان سيشكلون داخلها "النخبة السياسية" الجديدة التي ستكون أكثر ارتباطا بنموذج "الحزب"، بالمفهوم الحديث، منها بنموذج الزاوية.

3- المهدي : من الدباغة والخياطة وبيع الخضر... إلى الحزب

فعلا، التحق بقيادة الحزب أو بحواشيها أشخاص جدد، خاصة منذ بداية الأربعينات، وإذا كان كثير من هؤلاء يرتبطون

بعلاقات عائلية أو بعلاقة " المريد" بـ "الشيخ" في الزاوية ، فإن أقلية منهم وعلى رأسها المهدي لم تكن لهم مثل هذه العلاقات العائلية أو الطرقية، لأنهم كانوا من أبناء الأسر التي هدها الفقر في العالم القروي فدخلت المدن بحثا عن عمل. كان المهدي بن بركة حفيدا لرجل انتقل من موطنه بالعالم القروي (الزيايدة) قريبا من الرباط، إلى هذه المدينة حيث عمل خياطا للجلابيب. أما ابن هذا الخياط والد الشهيد المهدي، واسمه أحمد، فقد اشتغل مع عائلة زوجته، أخوال الشهيد، في صناعة دباغة الجلود بنفس المدينة. وفي سنة 1920 رزق ذكرا سماه المهدي. درج المهدي في أسلاك التعليم القائم يومئذ من الكتاب أو المدرسة القرآنية، إلى المدرسة الابتدائية إلى الثانوية فالبكالوريا الأولى والثانية، ثم ليسانس في الرياضيات من جامعة الجزائر.

ولم يكن المهدي من أولئك "المحظوظين" الذين يعمر شبابهم عالم الدراسة وفراغ العطل ولهوها، بل كان يقضي العطل في ميدان من ميادين العمل التي تتوفر له، يشارك أسرته في كسب أسباب العيش. "في منتصف الثلاثينات، وعمر المهدي حوالي الخامسة عشرة كانت تجربته في الحياة أكبر من قامته ومن عمره بكثير: قلة موارد العائلة دفعته للعمل في الصباح الباكر في سوق بيع الخضر بالجملة بـ"باب الحد". وفي العطلة الصيفية اشتغل في بدال التليفون (ستاندر) إدارة فرعية لناحية الرباط (بيرو عرب) في حي الأوبرا أو (يبورا). وكان

"بيرو عرب" جهازا لمراقبة أعوان السلطة في أحواز الرباط. وفي عطلة صيف أخرى اشتغل المهدي في "الترتيب" وهي مصلحة الضريبة الفلاحية التي تخصص وظائف للعطاشة من شباب الثانويات بالرباط وسلا عند نهاية الموسم الفلاحي لإحصاء ما يتوجب على الفلاحين والكسابين من رسوم وجبايات ... وفضلا عن ذلك شارك المهدي مشاركة بارزة في المسرح المدرسي الوطني في الرباط والدار البيضاء[1].

هذه كلها وظائف ومجالات مكنت المهدي من التعرف على واقع المجتمع المغربي، ليس مجتمع المدينة المحصور داخل أسوار الرباط وحسب بل أيضا واقع المجتمع القروي وأحوال الفلاحين. وهذه ملاحظة يجب أخذها بعين الاعتبار، ذلك أن النهضة بالعالم القروي تشكل حجر الزاوية في مشروع المهدي كما سنلاحظ لاحقا.

واهتم المهدي باللغة العربية بوصفها مجالا من مجالات تأكيد الهوية وممارسة الوطنية. ففي إحدى حفلات نهاية الموسم الدراسي "اختارت إدارة كوليج مولاي يوسف الشاب المهدي ليلقي نص خطاب بالفرنسية أعدته الإدارة للمناسبة، ولكن التلاميذ فوجئوا بكون المهدي كان ينظر إلى نص بين يديه

1- عبد اللطيف جبرو: المهدي بن بركة. الجزء الأول. دار النشر المغربية 1991 ص 66-68

كتب بالفرنسية بينما هو يردد كلاما عربيا"[2]. ويقول المهدي بصدد العربية: "إننا ونحن أطفال كنا ننظم الإضرابات في المدارس الفرنسية المفروضة علينا من أجل المطالبة بحصة في الدروس العربية"[3]. إن اهتمام الشهيد بإتقان اللغة العربية يتجلى واضحا في كتابته وأسلوبه كما سيلاحظ القارئ من خلال النصوص التي سنوردها له في هذا الجزء والذي يليه.

وهكذا فمن خلالها المدرسة الحديثة، المرتبطة بواقع المجتمع وبالمشروع الوطني، ومن خلال الدراسة العلمية التي يقودها عقل علمي رياضي، سيكون اتصال المهدي الشاب بالوطنية والنشاط الوطني/السياسي. وسيكون ترشيحه ثم فوزه في انتخابات رئاسة جمعية قدماء تلاميذ كوليج مولاي يوسف بالرباط سنة 1943 هو المدخل الرسمي الذي قاد الشهيد إلى صفوف القيادة في "الحزب الوطني" الذي حمل اسم "حزب الاستقلال" مع تقديم عريضة الاستقلال 11 يناير 1944، التي كان المهدي من الذين وقعوها ونشطوا في الدعاية لها.

4- المهدي... وعي بالمشكل ... ومشروع للتغلب عليه.

كان التحاق المهدي بقيادة حزب الاستقلال، إذن، من طريق غير طريق "الزاوية/الطائفة"، بل طريق المدرسة العصرية

2- نفس المرجع.

3- المهدي بن بركة في حوار مع جريدة الكفاح اللبنانية نوفمبر 1961. ذكره جبرو.

والتجربة السياسية العصرية في المدارس والجامعة، وبفكر تقوده تجربة اجتماعية شعبية وخيال رياضي مبدع. لقد كان يمثل بحق قمة التطور الاجتماعي/الفكري الذي عرفه المجتمع المغربي في بداية الأربعينات، فلا غرابة إذن أن يكون موقفه من الحركة الاعتراضية التي بدأت تتحرك وتنتشر في "الحزب" منذ منتصف الأربعينات، كاحتجاج على أسلوب قيادة الحزب المنحدرة من "الزاوية/الطائفة"، موقفا متفهما بل ومناصرا، ثم متحالفا. وقد كان المهدي يرى أن التطور الذي عرفه الحزب، هو انعكاس لتطور المجتمع، وأنه لابد من تكييف وضع الحزب بالشكل الذي يجعله يتجاوب مع هذا التطور ويدفع به نحو البناء والتجديد.

على اقتناعه بضرورة تجديد "الحزب" لم يكن يؤسسه في وعي المهدي مجرد الشعور بأن "الحزب" قد بدأ في "الترهل" وأنه استمراره على ما هو عليه سيجعله يتخلف عن تطور المجتمع فحسب، بل كان هذا الوعي نفسه مظهرا من مظاهر وعي عميق بضرورة العمل على تطوير المجتمع وإعطاء مفهوم "الاستقلال" معناه الحقيقي والعميق، كما هو في ضمير الشعب. والوعي بأن هذه المهمة تتطلب من أطر الحزب وتنظيماته الشعور بهذه المسؤولية الضخمة، وهو شعور يتطلب بدوره تحديد تصور واضح ودقيق لنوع المجتمع الجديد الذي سيخلف، في عهد الاستقلال، المجتمع الذي ورثه المغرب عن

الاستعمار وعن عصر الانحطاط الذي سبق الاستعمار؛ كما يتطلب كذلك تحديد الشروط الموضوعية والذاتية الضرورية لبناء هذا المجتمع الجديد، ومن أهمها إعداد الأداة، أي الحزب، القادر على أن يكون قاطرة هذا المشروع. ولم يكن المهدي يرى المغرب القديم والمغرب الجديد من منظار محلي ضيق يهمل العوامل الخارجية التي كانت تتمثل في الأمس في "الحرب الصليبية" التي تعرض لها المغرب بعد سقوط الأندلس، وفي الهجمات الاستعمارية التي تلتها والتي انتهت بفرض الحماية الفرنسية عليه، بل كان اهتمامه كذلك شديدا قويا بظاهرة "الاستعمار الجديد" أو الاستعمار المقنع الذي تلا عهد الاستعمار القديم أو المباشر، كما سنرى في الجزء الثاني. أما الآن فسننتقل إلى نصوصه التي تناول فيها القضايا الخاصة بالمغرب وبحزب القوات الشعبية.

المهدي ومسئوليات الاستقلال ...

طريق الوحدة ... والعالم القروي

1- "مسؤولياتنا"

تعتبر محاضرة "مسؤولياتنا" من أوائل النصوص التي طرح فيها الشهيد المهدي تصوره لمغرب ما بعد الحصول على الاستقلال ومتطلبات بنائه. لقد ألقى هذه المحاضرة بالمسرح البلدي بالدار البيضاء يوم 19 مايو 1957، أي بعد سنة واحدة من التوقيع على اتفاقية الاستقلال بين المغرب وفرنسا، ولا زال كاتب هذه السطور الذي حضرها يتذكر الأثر البالغ الذي تركته في نفوس الحاضرين لأنها كانت تعبر فعلا عن القلق الذي كان قد بدأ يسود الأوساط الوطنية من كون الأمور في عهد الاستقلال قد أخذت تسير على غير ما كان منتظرا. هذا ونشرت المحاضرة في كراس خاص.

وفيما يلي أهم فقراتها:

- أهمية الشعور بالمسؤولية للتغلب على مشاكل بناء الاستقلال.

قال المهدي بعد مقدمة: "إننا نعتقد أن استقلالنا ليس فقط مفتاحا للعمل والبناء وشق طريق جديدة، بل هو كذلك مفتاح للاستمرار في النهج القويم الذي سرنا فيه خطوات وخطوات، لتتميم ما بدأناه من مشاريع وأعمال، بوسائل قليلة وصعبة، أصبح اليوم في الإمكان توسيع

نطاقها، وتثبيت دعائمها بما توفر لنا من وسائل وإمكانيات لم تكن متيسرة لنا بالأمس.

وفي هذه الساعة التي نستعرض أمامنا مشاكل بلادنا لا ينبغي أن نتجاهل ميراث المخلفات المزدوجة، سواء منها التي تسبب فيها الاستعمار، أو التي ورثناها عن مرحلة تاريخية كنا مشغولين أثناءها بالدفاع عن النفس ولم يكن في إمكاننا بسبب ذلك أن نعمل لترقية بلادنا... إننا اليوم في وضع مغاير لكثير من الأمم، بعد أن اشتغلنا قرونا بالدفاع عن النفس تاركين ما عداه، فكان من الطبيعي أن نتخلف عن الركب وأن نتأخر عن القافلة. وليس فيها ما ينقص منا أو يشيننا، ولكن يخجلنا أن نغمض اليوم أعيننا أو نتناسى هذه الحقيقة ولا ننهض بجد للعمل على إصلاح حالتنا التي لا ينبغي أن لا نخفيها عن أنفسنا أو نغالط فيها.

لقد حصلنا على استقلالنا السياسي الذي عاد بنا إلى الحالة العامة التي كانت عليها بلادنا في تلك الظروف التي نكبنا فيها بالاستعمار، مع شيء جديد، وهو الوعي الوطني الذي تجدد في عهد الاستعمار، وهو الربح الأكبر. إنه هذه الروح الوطنية التي ستمكننا من التغلب على الحالة المؤلمة التي تعيش عليها بلادنا والفترة الحرجة التي تجتازها الآن. إن الشعور بالمسؤولية هو الذي دفعنا إلى عقيدة الجهاد وهو الذي خلق هذا الوعي الجديد بالمغرب، وعدم الشعور بالمسئولية هو ما نحسه الآن يهددنا ويجعل استقلالنا عرضة للخطر، بعد التضحيات الجسيمة التي بذلناها في سبيله. فلن تحل مشاكل بلادنا أبدا بقرارات تتخذها الحكومة ولا بقوانين نسنها، لن تحل مشاكلنا إلا بالشعور المشترك بالمسئولية، من طرف الحكومة ومن طرف العنصر الواعي من الشعب. هذا العنصر

الذي كان بالأمس شاعرا بالمسئولية وبأعبائها هو الذي يجب عليه أن يبقى في الميدان ويستمر في العمل. إن الشعور بانتهاء المهمة وإزاحة المسئوليات عن كواهلنا هو الذي يجعل بعضنا يشتغل اليوم بعيدا عن الواقع بالسفاسف والترهات..

فلا يجب أن تسود بيننا العقلية التي تصور مسئوليات عهد الاستقلال بأغنام مشوية يجب أن ينال كل واحد منا نصيبا منها، ولا يهنأ له بال حتى يظفر بالخبزة، ويحصل على منصب يضمن له التقاعد. إن الشعور بالمسئولية ربما يسمى فضولا، ولكنه فضول في محله، لأن المغرب إذا فقد يوما هؤلاء الفضوليين الذين شعروا بالمسئولية من أول يوم فتيقنوا أن الحركة ستقف عن السير إلى الأمام.

ومن ينهض بالمهمات غير هؤلاء الذين لم يفقدوا أبدا شعورهم بالمسئولية؟ انظروا وابحثوا حولكم وفتشوا جيدا عمن يستطيعون أن ينهضوا بهذه الأعباء الثقيلة. فالمغرب أمامكم، تنظرون إليه وكأنه فوق راحتكم، فهل تلاحظون غياب هذه النخبة التي تخرجت من صفوف الكفاح؟ إنها إذا فقدت الشعور بالمسئولية -لا قدر الله- فمعنى ذلك أن المغرب ينتظر استعمارا جديدا.

- حاجة المغرب إلى ثورة عميقة... في كافة المجالات

إن الحالة التي توجد عليها بلادنا الآن تحتاج إلى ثورة عميقة يجب أن نقوم بها. ولكي تتحقق يجب أن نقودها ونكوّن نحن الثوريين. والثوريون لن يتكوّنوا أبدا من خونة الأمس ولا من أذناب الاستعمار. إنهم يخرجون من صفوف هؤلاء المجاهدين الذين صهرهم الكفاح والذين ربما لا يزالون ثوريين مبتدئين، ولكن يجب أن ينقلبوا إلى ثوريين

حقيقيين، فهم الذين سيقلبون الأوضاع الفاسدة التي يوجد عليها المغرب. هم الذين سيعملون على رفع دخل الفرد المغربي الذي لا يتجاوز يبلغ معدله 35 ألف فرنك سنويا في المدن، بينما ينزل لدى سكان البادية إلى ما بين 10 آلاف و15 ألف فرانك.

كيف يمكن إذن أن نبدل هاته الحالة المزرية ونقلب هذه الأوضاع الفاسدة ونزيح هذا الغشاء الثقيل ونفرقع هاته القشرة التي تغلفنا وتحجبنا عن العالم؟

كيف نصل إلى ذلك؟

بالثورة أيها الإخوان: ثورة في الاقتصاد، ثورة في التفكير، ثورة في العمل، وفي كل ميادين الحياة. ولن يقود هذه الثورة إلا الثوريون الحقيقيون قلبا وقالبا، روحا ومعنى، فعلا وقولا، لا تزويرا وتضليلا وتغريرا.

هذه الثورة تعترضها وتحول دونها الآن عوائق مختلفة، ولا سبيل لنا إلى السير إلى الأمام دون التغلب على هذه العوائق وإزاحتها عن الطريق. وإذا كانت هذه العوائق مختلفة المصادر والأسباب فإن العائق الأكبر يعود إلينا، لأنه راجع إلى أنفسنا. لقد مرت علينا سنة (منذ الاستقلال!) كلها تجربة وامتحان عرفنا فيها ما يكفي، لذلك يجب أن نفتح اليوم أعيننا وننتبه ونستيقظ ونستوعب العبرة والدرس لنجدد السير إلى الأمام دون تعثر أو ارتباك. أما العوائق الأخرى التي تمنعنا من التقدم وتبديل الأوضاع الفاسدة فهي رغم أهميتها القصوى لا تحتل إلا المرتبة الثانية بالنسبة للعوائق التي نقيمها نحن بأنفسنا والتي يجب أن نبدأ بمعالجتها قبل غيرها، ثم ننتقل بعدها إلى العوائق التي يقيمها الاستعمار في طريقنا.

- الاستعمار ما زال يحاربنا ... ولكن بطرق ووسائل جديدة..

إنه لا تزال بيننا وبين الاستعمار حرب خفية، وقد عشنا سنتنا هاته في معركة مستمرة ضد الاستعمار الذي ما يزال يحاربنا من وراء الستار ويتآمر على استقلالنا في صور وأساليب مخالفة، بطبيعة الحال، لتلك التي كان يستعملها في عهد الحماية، نظرا لما حصلنا عليه من استقلال، ولكنها مع ذلك متفقة معها في الروح والهدف؟ إن له اليوم وسائله وأساليبه الخاصة التي يستعملها لمحاربتنا والوقوف في وجهنا وتعويقنا عن السير، لذا يجب أن نعرف جيدا خطط الاستعمار وأساليبه الجديدة التي تمكنه من الوقوف في وجهنا، حتى نكون على بينة منها ولنتمكن من إحباطها....

وإلى جانب التعجيز الإداري، والفني والمالي-الذي تمارسه علينا الأوساط الاستعمارية- يوجد عائق أكبر، هو التحطيم المعنوي... توجد اليوم إلى جانب كل قيادة حربية، إدارة يطلق عليها "القسم السيكولوجي"، وهو قسم مهم أصبح اليوم من العوامل الأساسية في الحرب إلى جانب الجيش.

وحيث أننا قد انهينا مع الاستعمار المعركة المسلحة، تم لنا النصر فيها، فإن الاستعمار لازال لم يستسلم ولم يلق جميع الأسلحة، لذلك نعيش اليوم، وسط لهيب الحرب السيكولوجية التي يشنها علينا، لا يحس أكثرنا بها. إن الزحف السياسي هو رأس مال الحركة الوطنية الأولى الذي لازال موجودا حيا مهيئا، هو عمدتنا وضمان نجاحنا. وأما رأسمالنا الثاني فهو التنظيم، فإن تفريطنا فيه معناه ضياع رأسمالنا الأول... وهذا عمل ندعو للقيام به جميع منظمات الحزب، جمعياته و هيئاته، سواء أكانت نقابته أم تجارية أم فلاحية أم إسعافية أم ثقافية أم رياضية...

- الواجب قبل الصداقة.

إن من واجبها جميعا أن نقوم على قدم وساق بتجنيد الناس وتنظيمهم للعمل، لأن هذا التنظيم هو الذي يجعلنا نستطيع تشغيل راس مالنا البشري وصرف الطاقة التي تزخر بها قواه الحية في بناء المغرب وتشييد دعائمه، هو الذي سيجعل الثقة التي و ضعها الشعب فينا في محلها، ويتيح للجميع أن يرى خراب البلاد يطوى، وعمرانها ينتشر.

يجب أن نحارب في هذا التنظيم جميع الأدواء والمثبطات، وكل الصفات المقيتة التي تسبب النفور والاستياء، وتجلب التفرقة والشقاق وتعوقنا عن السير إلى الأمام، وفي مقدمة هذه الأدواء روح الأرستقراطية التي تتكون أحيانا في صفوف الحزب، هذه الروح البغيضة التي تتقمصها نفوس بعض الكتاب (كتاب فروع الحزب) والمسيرين وأعضاء اللجان. ومن واجبنا أن نشعر هؤلاء الذين "يسبحون في الهواء"، بحقيقتهم... وذلك عن طريق النقد الذاتي لا عن طريق التحطيم...

ولا مجال في صفوفنا للمغالطة والتضليل. إن جميع منظماتنا تفرعت من ينبوع واحد، ويجب أن تظل سائرة في طريق موحدة كي لا نضلل شعبنا، ونفرق شمله، و نشتت رأيه. نحن الآن في وقت التجمع ويلزمنا أن نعمل على تقوية هذا التجمع، ويجب أن نقاوم التهاون ولا نغض الطرف عن كل من يتوانى في عمله.

إن شعارنا هو الواجب قبل الصداقة. ولذا يجب أن نصارح كل من يتوانى في عمله ونطالبه بأحد أمرين: إما العمل وإما الانسحاب. نحن لا نريد أن نفرط في أي فرد من إخواننا المخلصين، ولكن هناك فرق كبير بين عدم التفريط وإسناد المسؤوليات، لأن المسؤوليات يجب أن تسند لمن يستطيعون القيام بها وتحمل أعبائها والإخلاص في أدائها. ولذا

ندعو للنقد الصريح ولا نقبل الانتقادات المبنية على الشك والتشكيك، أو الملفوفة في رداء الريبة وسوء الظن. إننا نقصد من النقد، التطهير والبناء. علينا أن نعتبر كل من يعمل على تشكيكنا في نوايا إخواننا عدوا لدودا لنا. ولكن مادمنا لا نحصى أعداءنا ونعريهم فنحن تائهون. علينا أن نعرف هؤلاء الأعداء وأن ننحيهم عنا...

- حاجيات بلادنا كثيرة ... وضرورة اعتبار الأولويات

إن حاجيات بلادنا كثيرة اليوم، أنتم لا تجهلون حالة المغرب أمام مسؤولياته الجديدة، وستصيبنا الحيرة- لا محالة- إذا أردنا أن نعالجها دفعة واحدة، في آن واحد. يجب أن نعرف من أين نبدأ، وماذا نقدم وماذا نؤخر. إن من لا يعرف البداية لن يصل حتما إلى النهاية...

هكذا حال بلادنا اليوم: حاجياتنا كثيرة.

ففي ميدان التعليم نرى ضرورة تكثير المدارس الابتدائية والثانوية والتقنية وتكوين المعلمين وتعريب التعليم وتأسيس الكليات، وتطوير الكتاتيب القرآنية، وإصلاح برامج التعليم، ودراسة مختلف مظاهر النشاط الثقافي والرياضي والكشفي وإيجاد الإطارات اللازمة لكل فرع من هذه الفروع وما تحتاجه جملة و تفصيلا، وهذا غيض من فيض ونقطة من بحر...

لكن هل يكفي تعداد الحاجيات لمجابهتها كلها وعلاجها بأسرها في آن أحد؟ من السهل أن نزجي الوقت في تلاوة القوائم على الشعب. ولكن هل تظنون أن الشعب لا يعرف هذه الحاجيات وهو الذي يكتوي بنارها التي يستعر لهيبها في وجهه، وهو الذي من أجلها وفي سبيلها شن الثورة في وجه الاستعمار؟ يجب أن نصارح الشعب بحقيقتنا، ولا نخفي

عنه أننا أمة فقيرة وأننا إذا أردنا الغنى بدون عناء فهو سهل، ولكن مقابل استقلالنا الذي انتزعناه بالعرق و الدماء، والدموع. نحن فقراء، عندنا مال قليل في خزانة الدولة نعتزم صرفه في آكد الحاجيات: مثلا في تكوين المعلمين، هذا التكوين الذي هو مفتاح باقي مشاكل التعليم. ولكن تبقى هناك حاجيات كثيرة في غير ميدان التعليم: تجفيف المستنقعات، إصلاح الأراضي البور، نشر أساليب الفلاحة العصرية، إقامة الجسور، حفر السواقي، بناء المراحيض في القرى...

نحن لا نعدكم بصنع المعجزات، فقد انتهى عصرها، وكانت ميزة من الله خص بها بعض الأنبياء عليهم أزكى السلام. إن ما يسمى الآن بالمعجزة هو ما تقوم به الشعوب بالعمل المستمر، وبالتأني والتضحية المتواصلة، وفق برنامج محكم التصميم. علينا أن نبدأ اليوم بتحقيق مشروع، وغدا نشرع في تنفيذ مشروع آخر وهكذا حتى نحقق المعجزة.

ولا ينبغي مطلقا أن نسمح لأنفسنا بالاستماع إلى هؤلاء الذين يريدون أن يخدعونا عن حقيقتنا، ويلقون في النفوس والأذهان أننا نعاني كذا وكذا من الأدواء، وأن المسؤولين متقاعسون عن معالجتها جميعا. إن الذين يعرضون مشاكلنا على هذه الصورة إنما هم مدلسون وعملاء للاستعمار وأعوانه، فالأدواء التي يعاني منها الشعب، نحن أعرف الناس بها، لأننا نحن الذين حاسبنا المستعمرين على إبقائه عليها، وكنا أول من عمل على كشفها حتى أحس بها كل وطني مخلص، فهب يضحي للحصول على وسيلة العلاج، وها نحن قد بدأنا بمباشرتها الواحد تلو الآخر تاركين الخونة في تهريجهم المتملق يعمهون.

البرنامج يقتضي إذن معرفة الحاجيات ومعرفة الوسائل ومقارنة بعضها ببعض، وتوزيع الأدوار ليقوم كل واحد بمهمته: فالحكومة تعرف

أنها ستباشر هذا المشروع اليوم، والبلديات سنطالبها غدا بإنجاز هذا العمل، وبعد غد سنكلف الجماعات القروية بتحقيق نوع ثالث من المشاريع، وهكذا دواليك. وفي نفس الوقت سنجند جماعات الشباب للقيام بمختلف الأعمال وإنجاز عشرات المشاريع التي يستطيعون أن ينهضوا بها. هذه هي المجهودات التي يجب أن نقوم بها، وهي التي ستخرج بنا من هذا الاستقلال النظري إلى الاستقلال الحقيقي، الاستقلال الذي نبنيه بعقولنا وسواعدنا. .... التضليل فلن يؤدي أبدا إلى طريق النجاح، أما الأعمال المتواضعة مثل حفر الساقية، وبناء المدرسة الصغيرة، وشق المراحيض في الدواوير... فهذه الأعمال هي التي ستوصلنا إلى الاستقلال، لا التغرير ولا التضليل، ولا التحطيم والتشكيك والنيل من المسؤولين المخلصين في الحكومة.

أبدا إنهم منا وإلينا، وإذا وجدنا فيهم نقصا عالجناه. ومن جهتنا فنحن نحاسب وزراء حزبنا حسابا عسيرا، لا تحاسبون عليه بعضكم بعضا. نحاسبهم كل أسبوع خلال الاجتماع الذي يعقدونه ضمن جماعاتهم، حيث يدرسن فيها المسائل المطروحة ويقدمون البيانات ويناقشون، وينتقدون، ثم نصل إلى النتائج التي تنتظرها البلاد. هذا بينما البعض ممن وصل إلى وظائف صغيرة قد نسوا الحزب الذي كونهم فأحرى أن يتذكروا حضور جماعاتهم.

هذه هي حالتنا، وقد علمتم من هذا العرض مسؤولياتنا وعرفتم الطريق، ولكن هل تكفينا المعرفة. إن الطبيب لا يقتصر عمله على معرفة داء المريض وأسبابه ومضاعفاته بل لابد له من تقديم العلاج ومباشرته والقضاء على الداء... لقد دلت التجارب التي عرفتها الأمم بعد خروجها من الحكم الاستعماري، أنها تتوقف في بناء كيانها على أسس متينة.

وهي تتغلب على المشاكل العديدة التي تتراكم عليها في مستهل حياتها الجديدة إذا هي اعتمدت على القوة الحية المتولدة عن فترة الكفاح، وإذا استمرت تلك القوة في حيويتها وحماسها وتجندها ولم تركن إلى الراحة والتمتع بحلاوة الاستقلال، قبل تدعيم أركانه و تثبيت بنيانه والاحتياط من الألغام التي تهدد كيانه من طرف الخونة والمتآمرين. وان الدول الفتية التي لم تستكمل بعد نموها الإداري والاقتصادي لا يصيبها التدهور والانحلال من ضعف وسائلها المالية ولا من قلة الكفاءات الفنية بل يصيبها التدهور والانحلال من عدم شعور المسؤولين بمسؤولياتهم بعد التحرر، وتركهم للمشاكل تتراكم، والسماح لطريق السهولة أن تستهويهم. وهذا ما نعمل جادين لتجنبه مستفيدين من جميع التجارب والله ولي التوفيق" .

2- طريق الوحدة : مشروع نموذجي لبناء الاستقلال

عندما كان المهدي يلقي محاضرته تلك بالدار البيضاء في مايو 1957 مخاطبا مسئولي الحزب شارحا الوضعية السياسية والمهام المستعجلة المطروحة على الحزب وعلى الوطن كله، مهام بناء الاستقلال، كان منهمكا في الإعداد لمشروع "طريق الوحدة" الذي دشنه الملك محمد الخامس في أوائل يوليوز من السنة نفسها. كان الهدف الجغرافي من هذا المشروع هو ربط المنطقة الشمالية التي كانت تحت الحماية الإسبانية بالمنطقة الجنوبية التي كانت تحت الحماية الفرنسية. وباستثناء مسالك جبلية قديمة، لم تكن هناك طرق معبدة تربط بين جزئي المغرب سوى تلك التي تحاذي شاطئ المحيط الأطلسي، في الغرب، والتي كان التقاء المنطقتين فيها في

المركز الحدودي الجمركي "عرباوة". كان مشروع "طريق الوحدة" إذن يهدف إلى فتح طريق جديدة تربط بين الشمال والجنوب في وسط المغرب، تمتد من تاونات جنوبا نحو كتامة شمالا على مسافة 60 كيلومترا.

وإلى جانب الجانب الجغرافي لهذا المشروع كان المهدي يريد منه أن يكون تجربة رائدة في عملية البناء التي تعتمد الطاقات البشرية المغربية، طاقات الشباب. وكما قال هو نفسه إن من أهداف المشروع أن يكون "مدرسة تنفتح فيها أذهان شباب على أفكار وطرق جديدة في البناء ينقلونها إلى مناطق سكناهم على طول البلاد وعرضها". فمشروع "طريق الوحدة" كما كان يراه المهدي هو مثال من أمثلة التعبئة العامة للقوى الحية في البلاد لبناء الاستقلال، وسيكون منطلقا لعدد من المشاريع التي تهدف إلى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالاعتماد على الإمكانيات المحلية والوطنية. فالمشروع إذن يدخل في إطار بناء مغرب الغد بسواعد أبنائه.

لقد كان المهدي واعيا وعيا عميقا بمدى التخلف الذي يعاني منه المغرب، خاصة في العالم القروي، وكان مدركا تماما أنه لن يتم تجاوز هذا التخلف إلا ببذل مجهود يشارك فيه كل مواطن في كل مكان : في حياته الخاصة والعائلية، في مكان عمله، في القرى كما في المدن. ولكي تكون هذه المشاركة الشعبية مفيدة ومثمرة يجب أن تكون مندرجة ضمن مشاريع مخطط لها تخطيطا وتحت إشراف إدارة حازمة مخلصة وفي إطار ديموقراطي جماهيري. بهذا النوع من المشاريع يمكن —في نظر المهدي— تحويل البطالة التي هي فائض في اليد العاملة إلى مصدر قوة للمجتمع الوطني. فالعمل التعاوني وسيلة فعالة للعمل في مجال التطوير الاقتصادي والتقدم التقني.

فضلا عن أنه وسيلة لمقاومة الجمود والجهل والفقر، ولازال هذا الثالوث شرطا ضروريا لقيام ديموقراطية حقيقية. إذ لا معنى للديموقراطية بدون تحسين مستوى المعيشة. "إن الديموقراطية عملية غزو يجب القيام بها كل يوم وهذا ما يتطلب وعيا وطنيا مستمرا ويقظة دائمة، وتوازنا بين الحقوق والواجبات، الشيء الذي يوفر الشروط الأساسية للاستقرار في المجتمع".

اشتمل مشروع طريق الوحدة على ثلاث مراحل، في كل مرحلة فوج من الشباب المغربي يتقاطرون على فاس، مركز التجمع، عبر خط السكك الحديدية من طنجة شمالا ومن مراكش جنوبا. ومن فاس يلتحقون، على شاحنات القوات الملكية المسلحة، بالمخيمات التي أعدت في تاونات لاستقبال المتطوعين، ومنها يتوزعون على أوراش العمل. وكان عدد المتطوعين المترشحين نحو 50.000 شاب، اختير منهم نحو 11.000 متطوع مشارك. وإضافة إلى العمل اليدوي الذي يتمثل في شق الطريق بالسواعد الحاملة للفؤوس، كان المتطوعون يتلقون دروسا وتدريبات في التربية الأساسية والأعمال التعاونية الجمعوية.

وعند نهاية العمل في طريق الوحدة ومن أجل أن تبقى الروابط التي نشأت بين المتطوعين قائمة عمل المهدي على إنشاء جمعية باسم "جمعية بناة الاستقلال"، فانعقد جمعها التأسيسي بغابة المعمورة يوم 17 أكتوبر 1957 وقد خطب فيه الشهيد المهدي فأبرز أهمية الطاقة التي يختزنها الشباب المغربي، مؤكدا على أهمية تنمية العالم القروي جنبا إلى جنب مع تصنيع البلاد، لأن ذلك هو "مفتاح النمو الكامل". وأضاف: "إن تطوع الشباب لم ينته، بل هو

في مرحلة البداية. ذلك أن كثيرا من المناطق تنتظر عمل المتطوعين، ففي الجنوب لا زال الفلاحون يعيشون في الفقر لأنهم لا يعرفون كيف يستغلون أراضيهم بصورة أفضل... وقد حان الوقت لوضع برنامج تربوي في خدمة سكان البادية عموما، وعلينا أن نعرف كيف نستفيد من تجربة شبابنا. إن حشد هذه الطاقات والسهر على تنسيق وتوحيد مثل هذه الجهود الجبارة سيساعد على غرس الديموقراطية التي ستوجه هذه الوثبة الديناميكية نحو إنجازات جماعية وفورية عبر مؤسسة "الجماعة القروية". إن "بناة الاستقلال" يجب أن يكونوا مسيرين فعالين لأن الجماعة القروية ستكون الخلية الأساسية نحو ثورة اجتماعية اقتصادية وثقافية ينتظرها الشعب".

3- شهادة: "على طريق الوحدة"

شهادة جان وسيمون لاكوتور: في كتابهما "المغرب تحت الاختبار"[1].

"ليس طريق الوحدة ورشا تابعا للأشغال العمومية. فعندما كان المهدي بن بركة، رئيس المجلس الوطني الاستشاري والرئيس الفعلي لحزب الاستقلال، يفكر، خلال ربيع سنة 1957، في تنظيم ورش للعمل أثناء الصيف، لم يكن تفكيره منحصرا في نطاق إنجاز عملي وحسب، بل كان يفكر أيضا، وبالأحرى، في تجمع واسع للشباب حول موضوع وطني وحركي في الوقت نفسه. لقد كان الهدف هو إثارة اهتمام شبيبة لامبالية نسبيا، وحملها من خلال بذل الجهد على الاقتناع بأن العمل وحده يعطي مردودية، وأيضا جعلها تكتشف بصورة جماعية بعض حقائق الواقع

1 - JEAN ET SIMONE LA COUTURE, LE MAROC A L' EPREUVE. Ed. DU SEUIL. PARIS 1958. pp50-53

الحديث، وانتزاعها من عالم القرية المحدود وبالتالي فتح أعين الشباب المراهق -الذي لا يرون أية آفاق غير تلك التي يقدمها لهم الدوار والقبيلة- على وجود وطن اسمه المغرب من خصائصه التعدد والتنوع ويجتاز ظروفا صعبة. يتعلق الأمر إذن بمجال لاكتساب التجربة وبـ "منبه الصباح" (الموقظ من النوم) للشبيبة المغربية يمكن أن يتشخص أيضا في مشروعات أخرى من قبيل بناء سد أو القيام بعملية الحصاد أو بناء قرية شعبية أو مدرسة: إنه طريق.

وذلك لعوامل ثلاثة: أولا لأن هذا الربط بين المنطقتين الشمالية والجنوبية، سابقا، يمكن أن يحمل بسهولة معنى رمزيا. وثانيا لأن شق طريق لا يتطلب من العمال تقنية عالية بل في إمكان أي شاب قوي البينة، مع فأس في يده، أن يكون له فيه إنجاز كبير. ثالثا لأن انقطاع الطريق بين تاونات وكتامة، على مستوى الحدود القديمة، كان يشكل نشازا على الصعيد الاقتصادي كما على الصعيد السياسي. ولشق هذه الطريق الخطيرة التي تمر أحيانا عبر جبال يبلغ ارتفاعها 2.000 متر على سطح البحر قدرت إدارة الأشغال العمومية أنها تحتاج لمدة سنتين و800 مليون فرنك. وقد قررت "لجنة الطريق" التي أنشئت مؤخرا التكفل بإنجازها في مدة ثلاثة أشهر وبتكلفة لا تتعدى 184 مليون...

ها هم إذن هؤلاء الشباب القادمين من أرفود (الجنوب الشرقي، وجرسيف (الوسط) وتمنارت (الجنوب الغربي) من أجل "شق بطن" جبال الريف...

ولكن بماذا يتعلق الأمر بالضبط؟

هناك، بدون شك، الطريق التي يجب شقها. ولكن ما إن يمر منتصف النهار حتى يقف العمل في الأرض. فبعد تناول وجبة الغذاء مع قسط من الراحة يصطف الشبان (ما بين العشرين والثلاثين من العمر، و80٪ منهم من الفلاحين) بهدوء في مجموعات من مائة شخص على شكل نصف

دوائر. وخلال أكثر من ساعتين تنطلق محاضرات متعددة في مختلف أنحاء المخيمات من حيث تنبع أصوات تتقاطع دون أن يحجب بعضها بعضا فنسمع : "الضريبة هي مساهمة جميع المواطنين في أمن وازدهار الجماعة". "تعدد الزوجات ليس ممنوعا في ديننا، ولكنه غير مرغوب فيه، يقول القرآن...". أيضا: "لقد عانت بلادنا من تأخر كبير في مجال العلوم والاقتصاد بسبب العزلة التي بقيت فيها لمدة ثلاثة قرون". وتحت شجرة سنديان عظيمة شاب نحيف جدا ذو نظرات حادة يتلقى سيلا من الأسئلة من فلاح من الرجال السمر: "قلت لنا من الواجب علي طاعة والدي إلا إذا أمر بمعصية.

- فإذا أمرني أن أذهب بقطيع الماشية إلى حقل الحاج لحسن، فماذا أفعل؟

- في هذه الحالة عليك أن تمتنع.

- وإذا أمرني أن أتزوج أرملة؟

- لنطلب رأي الأرملة!

إن الأمر يتعلق هنا بمدرسة للتربية الأساسية أكثر منه بأوراش عمل. تلك هي الحقيقة. أما وسيلة الالتحاق بها فتقوم على التطوع. فبمجرد ما تقرر، في بداية شهر يونيو، تنفيذ المشروع من طرف المنظمين صدرت الأوامر لعمال النواحي بالإعلان عن فتح باب التطوع. لقد كان المطلوب هو 12.000 شخص موزعين على ثلاثة مراحل، شهر لكل مرحلة، من شهر يوليوز حتى شهر سبتمبر. وحسب ما قيل لنا فقد ترشح 30.000، الشيء الذي يفسر الاهتمام الذي لقيه المشروع لدى الشاب كما يشير إلى وجود بطالة. أما المشرفون على الأشغال فقد وقع اصطفاؤهم من بين مجموعات من المعلمين أو الحاصلين على مستوى دراسي مهما كان متواضعا. ثم يوجهون إلى مدرسة الأطر بغابة معمورة حيث يتلقون خلال الأيام العشرة السابقة على افتتاح الأوراش، تكوينا سريعا. فمن الأمير ولي

العهد إلى علال الفاسي مرورا بالمهدي بن بركة نفسه وبالمحجوب بن الصديق وعبد الرحيم بوعبيد، وبالجملة جميع زعماء النظام، إضافة إلى بعض الخبراء الفرنسيين، كل هؤلاء يلقون على المكونين محاضرات في موضوعات سياسية واجتماعية وتاريخية وثقافية، تكون لهم مرجعية في دروسهم التكوينية. وهكذا يتعلم آلاف من الشبان النازلين من مرتفعات بو-إبلان أو تشكا أو قادمين من سهوب بركنت ومن حمادة درعة أو قصر مكونة من أشخاص معبئين، خلال يوليو 1957، أن "المخزن" (الدولة) ليس نوعا من الكارثة على العالم القروي تقوم بالتهام المحاصيل الزراعية، بل هو حكومة للوطن، وأن الوطن ليس نوعا من "الجن" القوي القادر على كل شيء، بل هو بكل بساطة مجموع الأمة.

الأمة: ربما كان هذا، في آن واحد، أصعب شيء وأهم شيء يمكن جعل هؤلاء الشبان يدركون معناه. إن هذا هو ما بدا لنا أنه يعطي لـ "طريق الوحدة" معناه الأعمق. دمج منطقتين مغربيتين بدون شك. لقد كان من المفيد ربط المحميتين الإسبانية والفرنسية بواسطة طريق أخرى غير تلك التي تربط سهول الغرب باللوكوس، من الرباط إلى طنجة، ووازان بالشاون، على الأقل لمحو ذكرى تقسيم مجحف. ولكن المهم هو التوحيد على الصعيد البشري بين مجموعات جهوية وإثنية مختلفة ما زالت عملية الدمج بينها سارية لم تتم بعد. إن أكثر ما شد اهتمامنا إليه في هذه الأوراش هو جانب المزج" (بين مكونات الشعب المغربي).

الجماعات القروية أساس للديموقراطية وفضاء للتسيير الذاتي ...

من الموضوعات التي اهتم بها المهدي بوصفها الميدان الأول والأهم الذي يجب أن ينطلق منه بناء الاستقلال موضوع العالم القروي. وفي هذه المحاضرة التي ألقاها في صيف 1957 يعرض المهدي تصوره للجماعة القروية في إطار إعادة ترتيب العلاقات بين السلطة والمواطنين وتأسيس "ديموقراطية واقعية" تبدأ من القاعدة، تنظيما وممارسة. وكان ذلك قبل أن تجرى الانتخابات الجماعية الأولى في المغرب عام 1960. إن الأمر يتعلق، إذن بمشروع مستقبلي لـ"الديموقراطية الواقعية" على الصعيد المحلي. الديموقراطية التي تتجاوز التمثيل الشكلي إلى مهام ومسئوليات تتسع لتتحول إلى نوع من التسيير الذاتي للشؤون المحلية على صعيد الاقتصاد والاجتماع والشغل والتعليم والصحة الخ. كانت المحاضرة ذات طابع توجيهي فقد ألقاها في فوج جديد من رجال السلطة المتخرجين من مركز التكوين بأكدال التابع لوزارة الداخلية.

وفيما يلي مجمل الأفكار التي وردت في هذه المحاضرة.

1- من "الجماعة"... إلى الجماعة القروية الحديثة

أبرز الشهيد المهدي بن بركة في البداية كيف أن سرعة تطور المجتمع المغربي وبناء دولة عصرية في إطار ملكية دستورية، يتوقف على مدى سرعة تطور الوحدة الأساسية التي عرفها المجتمع المغربي منذ القديم، يعني "الجماعة"، إلى "جماعة قروية" بالمفهوم الحديث. وهذا - يقول المهدي- شيء ممكن لأن المغرب عرف دائما "الجماعة" كمرجع سواء في زمن الحرب أو زمن السلم، ولم يتقلص دورها لتنهار في النهاية إلا في عهد الحماية، وذلك حين أقامت السلطات الاستعمارية إلى جانبها، وكمنافس لها أريد منه أن يقوم مقامها، ذلك الموظف الإداري الذي أطلق عليه اسم "القائد". وقد نتج عن ذلك فرض حياة العزلة على سكان البادية وحرمانهم عن أية وسيلة للتعبير عما يحسون به وما يطمحون إليه، فصار الفلاح يتيما في أرضه. وقد حاولت المراسيم التي أصدرتها إدارة الحماية سنتي 1951-1952 تحريك "الجماعة" وبعث الحياة فيها، ولكن لا بهدف تأسيس حياة ديمقراطية حقيقية، وإنما من أجل تمكين إدارة الحماية من أدوات جديدة تخدم مشاريعها وأهدافها.

واليوم، يجتاز المغرب مرحلة جديدة تتميز بتطور ثوري: ذلك أن إطار "القبيلة" القديم بدأ ينقرض، وقد حان الوقت لجعل مفهوم "الحدود الترابية" يحل محل مفهوم "الحدود القبلية"، وبذلك لن تبقى روابط الدم والنسب التي كانت توحد بين أعضاء القبيلة، هي وحدها السائدة، بل ستقوم إلى جانبها روابط جديدة لا تقل عنها مفعولا، فضلا عن أنها أكثر منها تجاوبا مع معطيات العصر. إن "الجماعة" القديمة ستتحول إلى "الجماعة القروية" التي هي وحدة ترابية بسيطة تقوم على أساس الحقائق الجغرافية والإنسانية والدينية والسياسية. وسيصبح "السوق" كنواة مركزية لقرية الغد. وسيكون على رأس الجماعة رئيس منتخب، وهو مفهوم جديد سيحل محل مفهوم "الشيخ". فهو لن يكون

عونا من أعوان السلطة كما كان "الشيخ: بل سيكون على رأس جماعة، منتخبا من مجلسها الذي سيؤسس لحياة ديمقراطية يعبر من خلالها سكانها عن حاجاتهم المحلية مثل استصلاح الآبار والتزود بالماء وشق الطرق وبناء المدارس الخ، وسيكون مجلس الجماعة على اتصال بذوي رات الفنية كالمرشد الفلاحي والمعلم والممرض الخ.

إذن، ستكون نقطة الانطلاق الديناميكية والخصبة لبناء البلاد هي الجماعة التي ستحكم نفسها بنفسها بدل أن تكون خاضعة للسلطة المطلقة لقائد قوى... إن الجماعة يمكن أن تصير اليوم، وبصورة أفضل غدا، العنصر المحرك للتحويلات الجذرية التي يتطلع إليها شعبنا. الجماعة ستكون بذلك الخلية الأساسية للحياة الوطنية، للديمقراطية وللتربية الأساسية، إنها ستكون مركز إشعاع اجتماعي لقطاعات التجديد الفلاحي وذلك بالمحافظة ليس فقط على جوانبه التقنية، بل أيضا على مرافقه الاجتماعية كالمستوصفات والمدارس ورديفاتها. ويتعين على المجلس القروي أن يستجيب لجميع الحاجيات، وهذا ما سيجعله يتحول من الطفولة إلى الرشد، أي إلى مرحلة تحمل المسؤوليات.

2- الجماعة كمؤسسة للتسيير الذاتي...

على أن الحياة الديمقراطية لا تعني بالضرورة المركزية المبالغ فيها، بل هي تقوم أصلا على اللامركزية الهادفة، وبهذا تتحول الجماعة إلى جهاز للتسيير الذاتي على طريق إنجاز التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتصدي لما قد ينتاب الإدارة من تباطؤ وتراخ.

ولكي تقوم الجماعة بهذه المهام يجب أن تعتمد نظام الملكية الجماعية، وفي نفس الوقت تطبق التوجه الوطني التي يصدر عن حكومة صاحب الجلالة. هذا التوجه يجب أن يسهر عليه ممثلو السلطة، أي العمال ورؤساء الدواوير والقائد الذي يجب تغيير اسمه إلى "متصرف". إن هؤلاء سيكون عليهم، كل حسب مستواه، أن يساعدوا الجماعات

القروية على تحفيز أولئك الذين يتراخون في القيام بالواجبات من جهة وعلى منع التجاوزات الناتجة عن الأنانيات الضيقة من جهة أخرى. وسيكون هناك "مجلس دائرة المتصرف" ينتخب أعضاؤه على أساس عضوين اثنين لكل جماعة قروية...

وستبقى مراقبة الجماعة للقائد، أو المتصرف، مفيدة بل ضرورية حتى لا يتقمص دور الدركي، إذ سيكون عليه أن يهتم أكثر بالعلاقة مع المصالح المرتبطة بوزارة الفلاحة والمحافظة العقارية المحلية وبالتعليم والصحة والشغل، وسيكون دوره هو حفز المبادرات، واستنهاض الهمم وجعل حد للتجاوزات أو الشهوات المحلية ...

وعلى صعيد الإقليم سيتم تنسيق جميع مصالح الأشغال العمومية والمياه والغابات والهندسة القروية والتعليم، وسيكون الهدف هو تجميع المصالح التقنية الأساسية مثل الفلاحة، والضرائب القروية، والمحافظة العقارية، والتعليم، والصحة، والتعليم (على صعيد القيادات) وفيما بعد على صعيد الجماعات القروية بكل معنى الكلمة. ويمكن للمجلس الإقليمي أن نكون له اختصاصات اقتصادية واجتماعية، وسيكون هذا المجلس مجالا لتفتح العملية الديمقراطية الحرة وإشعاعها على المدى الأساسي لقيادة الجماعات القروية.

وهكذا فمستقبل المغرب حافل بالوعود. وستكون حياة الجماعة القروية مخبرا لثورة عميقة في مجتمعنا على صعيد مجموع القطر، وسيكون التسيير الذاتي على مستوى الإدارة بمثابة توسيع للحريات السياسية للمواطنين. إن تسيير الفلاحين والتجار والحرفيين شؤونهم بأنفسهم في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتربوية دليل على دخولنا في نهاية المطاف، عهد الحرية التي تقودها الإدارة بمرونة وفعالية...".

كان ذلك مجمل الأفكار التي وردت في المحاضرة المشار إليها، وقد كررها المهدي وفصلها في محاضرات أخرى ألقاها في مناسبات

مماثلة سنتي 1957-1958 عندما كان رئيسا للمجلس الاستشاري. ومعلوم أنه حدث "انقلاب" في توجه الدولة وسياستها بعد إقالة حكومة عبد الله إبراهيم. وقد أجريت انتخابات جماعية بعد أسبوع من إقالتها ولكن تأخر إصدار القانون المنظم لها إلى أن ظهرت النتائج وتبين اتجاه الرأي العام الوطني. وحينئذ صيغ قانون المجالس المحلية بالصورة التي تنسجم مع "الانقلاب" الذي حدث.

3- "المسألة الأمازيغية" وتهميش المناطق الجبلية.

نقصد بـ "المسألة الأمازيغية" هنا ما كانت سلطات الحماية الفرنسية تطلق عليه "النزعة البربرية" Berberisme، وكانت تقصد بها أحد وجهي ذلك الانشطار الذي عرفه المغرب في بداية هذا القرن والذي كان يتشخص في انقسام الأرض المغربية آنذاك إلى "بلاد المخزن" وبلاد السيبة". كانت السلطات الفرنسية ترى في ظاهرة "بلاد السيبة" تعبيرا عن نزعة "بربرية" متمردة على حكم "المخزن" الذي على رأسه سلطان عربي. فكأن المسألة هي مسألة عرب وبربرا! وعلى هذا الأساس انقسم المخططون للسياسة الاستعمارية الفرنسية بشأن احتلال المغرب، إلى فريقين:

الفريق الأول يرى أنه يجب الاعتماد على "النزعة البربرية"، أي على رؤساء "بلاد السيبة" الثائرين على المخزن واتخاذهم مصدرا لـ "شرعية" الوجود الفرنسي، باعتبار أن "البربر" هم أهل البلد و"العرب" وافدون محتلون يجب إقصاؤهم من مراكز النفوذ السياسي والعلمي والاقتصادي، كل ذلك وصولا إلى فرنسة المغرب، وبالتالي تحقيق مشروع ربط شمال إفريقيا كلها بفرنسا، على غرار ما فعلته إنجلترا بجنوب إفريقيا. كان العاملون في هذا المشروع من دهاقنة

الاستعمار الفرنسي يرون أن فشلهم في الجزائر يرجع إلى كون "البربر" هناك (القبايل بالخصوص) هم أقلية وأن "العرب" يشكلون الأغلبية، أما في المغرب فقد كانت الأغلبية العددية من السكان من العنصر "البربري" (قدروها بنحو 60٪ في المائة).

أما الفريق الثاني، وكان من العناصر البارزة فيه المارشال ليوطي الذي كان قائدا للقوات الفرنسية شرق الجزائر ويراقب المغرب عن كثب، فقد كان يرى العكس! كان هذا الفريق يرى أن على فرنسا أن تستند في احتلالها للمغرب على المخزن وشرعية السلطان. وقد تبنت الحكومة الفرنسية وجهة نظر هذا الفريق "منذ بداية التدخل الفرنسي في المغرب سنة 1907 إلى مغادرة ليوطي المغرب سنة 1925. وفي هذا الإطار "ساند الجنرال داماد، الذي كان على رأس القوات الفرنسية التي احتلت الشاوية، السلطان عبد العزيز سنة 1907 ضد أخيه عبد الحفيظ الذي نصبه كبار رؤساء قبائل الأطلس سلطانا. وفي سنة 1911 أنقذ الجنرال موانيي المولى عبد الحفيظ من قبائل بني مطير التي هاجمت فاس[1]. وقد رسمت معاهدة الحماية لليوطي الخط الذي يجب السير عليه، فقد نصت على احترام السلطان ومساندة المخزن".

1- يذكر المصدر الذي نعتمده هنا (أسفله) في الهامش ما يلي : أورد المسيو فكتور بيرتي في (كتابات من باريس أبريل 1953) رسالة مدهشة كتبها السلطان مولاي حفيظ إلى باشا طنجة يبرر فيها استنجاده بالنصارى (قال فيها) : "إن البرابر== المتوحشين لا يمكن لأحد، بسبب طبعهم، الثقة إلى حسن نيتهم. فهم منذ أول الزمان لم يقبلوا النظام قط وإن من يتأمل قضية هؤلاء البرابر لا يجد في الاستنجاد ضدهم بالمساعدة الأجنبية عملا مخالفا للشرع".

"وعندما غادر لويطي المغرب تغير اتجاه الرياح، ولكن ليس في الحين. لقد كان لابد من انتظار هدوء عاصفة ثورة الريف وخفوت ذكرياتها. وهكذا فحوالي سنة 1928 تشكلت حول المقيم العام الجديد لوسيان سان جماعة من رجال القانون والاجتماع العلمانيين الذي اكتشفوا بابتهاج "لاتدين" البربر، وقد ساندهم في ذلك، بالخصوص، المحيطون بقس الرباط. ففي النشرة التي كانت تصدر عن هذا الأخير نلاحظ ظهور عبارات مثيرة يمكن تلخيصها كما يلي: بما أن البربر هم أقل ارتباطا بالإسلام من العرب فإنه يمكنهم ويجب عليهم أن يتنصروا". ويضيف مصدرنا: بعض هؤلاء، ويقصد رجال الكنيسة، ربما أخذتهم النشوة عندما رأوا أحد أبرز المثقفين المسلمين في فاس يعتنق المسيحية[2] سنة 1928 فأرادوا إدخال حفدة القديس أغسطين إلى المسيحية، بينما رأى آخرون (العلمانيون) في البربر فلاحي المستقبل الراديكاليين-الاشتراكيين، فأرادوا أن "يجنبوهم المرور عبر الإسلام السني والتيوقراطية العربية-الإسلامية". ويضيف مصدرنا: "ففي هذا السياق تم في 16 مايو 1930 تحرير ونشر الظهير البربري المثير".

ذلك ما كتبه جان وسيمون لاكوتور كتأطير للجواب الذي أجاب به الشهيد المهدي بنبركة على سؤالهما: حول حقيقة "المشكلة البربرية". قال: "إن المشكلة البربرية المزعومة ليست سوى أحد رواسب السياسية الثقافية التي سلكتها الحماية. إنها الثمرة التي أنتجتها "مدارس الأعيان"، المدارس المخصصة لأوليغارشية مدينية

2- كان الوحيد الذي تنصر من المغاربة، وقد انتقل إلى فرنسا وكان على اتصال بالحركة الوطنية هناك.

تفكر انطلاقا من الوضع القائم وفي اتجاه تطوره. إن الرجل البربري هو بكل بساطة، شخص لم يسبق له أن ذهب إلى المدرسة. وإذن فالمشكلة المطروحة هي مسألة تعليم وتطور اجتماعي، مسألة تجهيز فكري وتجهيز تقني للبادية"[3].

وإذن فالمهدي لم يكن يقصد من قوله "الرجل البربري هو بكل بساطة شخص لم يسبق له أن ذهب إلى المدرسة" شيئا آخر غير أنه كونه رجلا عانى من التهميش والإقصاء والاستغلال بسبب السياسة التعليمية الفرنسية في المغرب التي تندرج تحت الاستراتيجية العامة التي اختارتها فرنسا لاحتلال المغرب، استراتيجية الاعتماد على بلاد المخزن التي جهزتها بمدارس "أبناء الأعيان" ليكونوا أعوانا لها ووسطاء بينها وبين السكان هذه في حين أغفلت "بلاد السيبة" وهمشتها مما نتج عنه نوع من العزلة يدفع إلى الثورة والتمرد على كل سلطة، سلطة الحماية، وسلطة دولة الاستقلال في سنواتها الأولى.

---

3 - Jean et Simone LaCOUTURE, LE MAROC EN MARCHE. Ed. DU SEUIL Paris 1958. pp.83-85

هذا وقد سبق أن أوردنا هذا التصريح للشهيد المهدي في كتابنا "المغرب المعاصر" ص 107. وقد لاحظنا مؤخرا أن بعض الزملاء فهموا منه على أنه موقف من "المسألة الأمازيغية" كما تطرح اليوم. وهذا في نظرنا خطأ. ولذلك حرصنا هنا على نقل الإطار الذي أدرج فيه الصحفيان الفرنسيان فكرة المهدي. وهكذا فبالنسبة للشهيد المهدي فما كان يعتبره الفرنسيون بـ "المسألة البربرية"، أي "السيبة" قبل الحماية والتمردات التي عرفها أوائل الاستقلال في الأطلس والريف، إنما هي نتيجة تهميش البادية، قديما من طرف دولة المخزن، وحديثا من طرف سلطات الحماية الفرنسية.

شروط بناء المجتمع الجديد:

لابد من أداة فعالة، لابد من انقلاب في الحزب

يعتبر هذا النص أهم نص للمهدي قبل انتفاضة 25 يناير 1959 . لقد ألقى هذه المحاضرة الشهيرة في مسيري فرع حزب الاستقلال بتطوان بتاريخ 31 يوليوز 1958، أي في ذلك الوقت الذي كانت الأزمة داخل حزب الاستقلال قد بلغت أوجها، فحكومة بلافريج التي كانت الأغلبية فيها لحزب الاستقلال، والتي كان قد مضى على تشكيلها نحو ثلاثة فقط، قد تبين أنها ليست الحكومة المنسجمة المسؤولية التي يطالب بها الحزب، وأنها فضلا عن ذلك تمثل في شخص رئيسها "التيار المحافظ في الحزب"، فعارضها الاتحاد المغربي للشغل معارضة قوية، وشن ضدها سلسلة من الإضرابات (يونيو : 1958 راجع الكتاب الثالث ص 50). وتأتي محاضرة المهدي لتفجر الوضع في حزب الاستقلال تفجيرا: فقد دعا في نهايتها إلى إحداث "انقلاب" داخل الحزب، معتبرا ذلك شرطا ذاتيا ضروريا ليتحول إلى "أداة فعالة" تستطيع القيام بمهام بناء المجتمع الجديد، مجتمع مغرب الاستقلال، رابطا ذلك بالشروط الموضوعية التي لابد منها، موضحا طبيعة هذه الشروط وترابطها وتكاملها.

وهكذا فبعد أن كان الاتجاه داخل حزب الاستقلال مركزا من قبل على المطالبة بـ "حكومة منسجمة"، بينت التجربة، بعد

تشكيل حكومة بلافريج، أن مشكل عدم قيام "الحكومة المنسجمة" القوية المطلوبة لا يقع خارج الحزب فقط، بل هو -في جزء كبير منه- انعكاس لوضع الحزب، للفراغ الذي يعاني منه على صعيد التحليل لوضع المغرب المستقل، وعلى صعيد غياب برنامج واضح للحزب يترجم مضمون الاستقلال إلى واقع ملموس، ثم على صعيد كيان الحزب ذاته، الحزب الذي يجب أن يتحول إلى "أداة" لتغيير الأوضاع، بالشروع في تغيير نفسه، بإحداث انقلاب في كيانه.

ومع أن هذه المحاضرة يمكن اعتبارها بحق مؤشرا على ما سيحدث بعد ستة أشهر، أعني انتفاضة 25 يناير 1959 إلا أنها تؤكد وبقوة وجهة نظر المهدي التي كان يؤمن بها، وهي أن "الانقلاب" يجب أن يحصل داخل حزب الاستقلال وليس خارجه وأن "الأداة" المطلوبة هي حزب الاستقلال نفسه بعد أن يتجدد. ونظرا لأهمية هذه المحاضرة ندرج نصها الكامل كما صدرت عن المطبعة الاقتصادية بالرباط في كراس موجه للعموم.

"نحو بناء مجتمع جديد

"بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوان الأعزاء:

بعد أن أحييكم أشرع في موضوع حديثنا وهو: "نحو بناء مجتمع جديد"، وأود أن يكون هذا الحديث متبادلا بيننا لأن الأفكار التي سأعرضها عليكم اليوم تتصل اتصالا وثيقا بحياتنا اليومية وبمصير

بلادنا. ولعل الحديث في هذا الموضوع سيثير في نفوس البعض منا هذا التساؤل: هل نحن في حاجة إلى بناء مجتمع جديد؟ وهل المجتمع الذي نشأنا فيه وتغذينا بأفكاره لم يعد مجتمعا جيدا؟

كثير من المواطنين يعتقدون بأن مهمتنا قد انتهت بعدما حصلنا على الاستقلال، وبأننا أصبحنا نعيش حياة مثالية وفي مجتمع مثالي خال من كل العيوب. وهذا الاعتقاد يدعو لهذا التساؤل، وهذا التساؤل يدعونا بدوره لطرق هذا الموضوع ليكون الجواب شافيا، وخاصة في ظروف تطالبنا بأن نشمر عن ساعد الجد ونكافح كفاحا جديدا أقوى من أي كفاح مضى.

مجتمع قديم

فإذا عدنا بخيالنا إلى خمسين سنة خلت، أو إلى ما قبل تلك المدة بكثير، فإننا نجد أنفسنا وجها لوجه أمام مجتمعنا القديم، أمام مجتمع كانت تميزه عدة مظاهر، وكانت أهم هذه المظاهر وأقواها هي الجمود مع الغرور. ولقد ذهب هذا الاعتزاز بكل مغربي إلى اعتبار حياة مجتمعه نادرة المثال، وعلوم بلاده وفنونها لا شبيه لها في أي قطر، ومعاملات بني قومه سامية قلّ أن يدركها بشر، كما دفع بنا إلى النظر إلى العالم وحضارته بعين الاحتقار، إذا فرضنا أننا كنا نرى العالم لأننا في الواقع كنا نعيش في قعر بئر وداخل ستار كثيف. وكان من بين مظاهر مجتمعنا القديم أيضا الجمود والتعصب: فلا يكاد أي مواطن يدلي برأي جديد إلا ويتهم من طرف المثقفين، الذين كان يطلق عليهم لقب العلماء،

1- جميع العناوين الفرعية موجودة في النص الأصلي

بالزندقة وبالخروج من الدين، لأن هؤلاء العلماء كانوا يرون بأن الرغبة في استعمال علوم دخيلة غير علومنا وفنون أجنبية غير فنوننا يعد نقصا من قيمة تراثنا الذي بلغت علومه وفنونه الدرجة القصوى من الرقي والتقدم، ولأنهم كانوا ينظرون إلى العالم الخارجي، بأقوامه وفنونه وعلومه وحضارته، نظرة تنقيص واحتقار. ولقد دام مظهر الاعتزاز بالمجتمع ومظهر الجمود والتعصب، وما يتبعهما من مظاهر رجعية، مدة طويلة في مجتمعنا ولم ينته عهدهما إلا منذ ثلاثين سنة خلت.

أثر الاستعمار على مجتمعنا القديم : فعندما اقتحم علينا الاستعمار ستارنا الكثيف أحدث في نفوسنا وأفكارنا هزة عنيفة جعلتنا نستيقظ تدريجيا من سباتنا، ونخرج من عزلتنا، وندرك بأنه يوجد عالم واسع غير العالم الضيق الذي كنا نعيش فيه متخلفين عن الركب، وأنه توجد علوم وفنون أرقى من علومنا وفنوننا، وأفكار نيرة نفضت عنها كل جمود وتعصب، وإسلام حقيقي أكثر نصاعة وسلفية من الإسلام الذي اتبعناه محاطا بطبقة من القشور والخرافات وعبادة الأصنام.

وفي السنوات الأولى من الاستعمار اكتشفنا بأن مجتمعنا لم يكن مجتمعا نادر المثال كما كنا نعتقد، لأنه لو كان نادر المثال لما تمكن الفرنسي والأسباني، الذين كنا ننظر إليهما وإلى جميع الأوروبيين بعين الاحتقار، من جعلنا عبيدا، ولما استطاعت الوسائل العلمية والفنية والحضارية التي لديه من التغلب على ما كان لدينا من وسائل.

وما العمل بعد الاستقلال؟ لقد دفعتنا يقظتنا إلى الكفاح ضد الاستعمار. وبعد كفاح سنوات طوال ظفرنا بالاستقلال. وفي عهد الاستقلال ما ذا سنعمل؟ هل سنعود-كأجدادنا- إلى الاعتزاز

بمجتمعنا وننظر إلى العالم نظرة احتقار؟ هل سنرضى بالحياة في مجتمعنا الحالي كل الرضى وننزهه عن كل العيوب، أم سنشمر على ساعد الجد لنقوم ببناء مجتمع جديد؟

صدمة تاريخية: في الواقع لسنا بمسئولين-ولا أجدادنا بمسئولين- عن تلك النظرة التي كنا ننظر بها إلى العالم، فهي نظرة ناتجة عن صدمة في تاريخنا الوطني. فعلى الرغم من أن المغرب كان عريقا في المجد، وكان مغذيا للحضارة الإنسانية التي نقلت إلى أوربا الأسس التي بني عليها فيما بعد التطور العلمي والفني في العالم، فإن إهماله لتراثه- كما أهملته شعوب الشرق العربي والشرق الأقصى- أضاع عليه الكثير من الفرص وجعله ينظر-كالصين- إلى الأوروبيين نظرة احتقار، كما جعله يتلقى صدمة قوية عندما شنت عليه إسبانيا- بعد خروج المسلمين من الأندلس- حربا شعواء.

لقد تلقينا صدمة تاريخية عندما بدأت الحروب الصليبية في بلادنا عقب انتهائها في الشرق العربي، ودامت مدة ثلاثمائة سنة جابه المغرب خلالها حروبا قاسية شنتها دول إسبانيا والبرتغال وإنجلترا وغيرها، وكانت هذه الحروب سببا في انقطاعنا عن العالم، وبالتالي سببا في انقطاعنا عن التطور، وسببا في تحول الحرب ضد الجهل والجهاد، لرفع منارة الحضارة والعلم، إلى حرب ضد المستعمرين الدخلاء وجهاد لرفع راية العزة والكرامة. وتحول قادة الفكر وأقطاب العلم إلى قادة حربيين وأقطاب عسكريين لمغرب أصبحت رقعته إذ ذاك عبارة عن معسكر كبير، وأصبح أبناؤه يقفون وقفة رجل واحد لرد جيوش الأجانب وبناء الأسوار لجعل بلادهم حصنا منيعا على كل الدخلاء المهاجمين. وكانت هذه

الأسوار وهذه الحصون تشكل فعلا سدا منيعا لم يستطع الأجانب تجاوزه، ولكنها كانت في الوقت نفسه حاجزا للتطور والتقدم وللعلم الجديد الذي أخذت تشع أنواره في أوروبا، ولم يستطع اختراق هذه السدود وهذه الحصون سوى الغزو الاستعماري الذي تم في أوائل القرن العشرين.

عقدة نفسية : وأثناء تلك الفترة الحربية الطويلة ضاعت على المغرب فرصة الاستفادة من الانقلابات والتطورات التي وقعت على أبواه في عدة دول أوربية بسبب ذلك الستار الذي أحاط به نفسه دفاعا عن الاستقلال. ووقع الجمود في الفكر المغربي، كما تكونت لدى المغاربة عقدة نفسية- تكونت عن الرغبة القوية في الدفاع عن النفس- وهي نظرتهم إلى العالم نظرة خوف وحذر وبالتالي نظرتهم إلى كل ما هو أجنبي نظرة احتقار وازدراء، الأمر الذي جعلهم لا يفتحون أي مجال للثقافة الغربية. ولم تكن هذه النظرة خاصة بالمغاربة آنذاك بل كانت هي نفس نظرة اليابانيين والصينيين إلى الأجانب.

وقد أضاعت علينا أفكار الرجعيين عندنا-حين عودة بعثتنا العلمية الأولى- فرصة التطور والتقدم بينما أتاح فيه علماء آخرون لبلدانهم التطور والتقدم عقب عودة البعثات العلمية إلى كل من الصين واليابان. ففي عهد السلطان مولاي الحسن أرسل المغرب-كما أرسلت اليابان والصين- بعثة علمية إلى الخارج، تلقى أفرادها دراستهم في مختلف المراكز العلمية بأوربا؛ وعندما عادت هذه البعثات إلى أوطانها كانت بعثتا الصين واليابان سببا في تقدم هذين القطرين العظيمين حتى تمكنت اليابان إذ ذاك من خوض حرب ناجحة ضد إنجلترا،(وتمكنت) الصين

اليوم من صنع قنابل تنتقل عبر القارات. أما البعثة المغربية فقد وقعت ضحية رجعية العلماء وبلاط القصر الذين اتهموا أفرادها بالكفر والخروج عن الدين بسبب ارتدائهم للزي العصري مثلا وحلقهم للحاهم وتشبههم بالأوروبيين.

حافز أساسي لبناء مجتمع جديد: فهذه الظاهرة، وعشرات أمثالها تعطينا فكرة عامة عن الحالة السيئة من التأخر التي كان عليها مجتمعنا في الفترة التي سبقت عهد الاستقلال، هذه الفكرة العامة هي التي دفعتنا إلى العمل-عندما وجدنا أن المجتمع الذي خلفه لنا الاستعمار مجتمع فاسد وأن الواجب يفرض علينا إزالة بقاياه- لبناء مجتمع جديد، لنقضي على كل العلل التي بلتنا بالاستعمار لأن إبقاء العلل يكفي لأن يجلب لنا استعمارا جديدا.

مجتمع متخلف.

لقد حافظ الاستعمار على بقايا مجتمعنا القديم بسبب سياسته التي كانت ترمي لإبقاء ما كان على ما كان. لقد وجد الاستعمار لدينا صناعة وفلاحة متخلفة عن صناعة وفلاحة العالم، ووجد كلا من الصانع والفلاح يشتغل بوسائل بسيطة ويحصل على إنتاج ضعيف ويعيش حياة قاسية بئيسة، فعمل ما استطاع لإبقاء ما كان على ما كان. كما وجد المواطنين يفكرون في نطاق أفق ضيق يعملون بياض يومهم من أجل كسب قوتهم بعرق جبينهم ولا يفكرون في ضرورة تعليم أبنائهم والسهر على صحتهم لأن حاجاتهم اليومية الماسة، وتطلبها لكل وقتهم، لم تكن تترك لهم مجالا للتفكير في غيرها.

مجتمع من هذا النوع يطلق عليه في الاصطلاح الاقتصادي اسم المجتمع المتخلف.

اضمحلال الثقافة: وفي مجتمعنا القديم تجلت ظاهرة الجمود الفكري، هذه الظاهرة المتولدة عن إقفال الفقهاء لباب الاجتهاد وانتشار العلم النقلي الذي لا يتجاوز دور أصحابه-من حيث النقل الأمين- الدور الذي تقوم به الأسطوانة اليوم. وتحولت العلوم الرياضية، من سلسلة مقدمات عقلية للوصول إلى نتائج منطقية، إلى عدة طلاسم، إذ أصبح المؤقتون مثلا يجرون عمليات سخيفة للوصول إلى مطالب التوقيت دون فهم لأسرار تلك العمليات.

وكان العلماء قليلين جدا، الأمر الذي جعل تراثنا محصورا في طبقة معينة كانت تبخل بهذا التراث الذي كان ينقرض بعضه بانقراض المحافظين عليه، وكانت تحرمه نهائيا على عامة أبناء الشعب وتحتكره لنفسها ولا تسمح به إلا لطبقة خاصة.

عبادة الأصنام: وهناك ظاهرة أخرى من مظاهر تأخر مجتمعنا وهي عبادة الأصنام، وهذه العبادة ناتجة عن الأفق الضيق الذي كان يحاصر التفكير المغربي. فقد بلغ إعجاب المغاربة ببطولة المجاهدين ضد الغزاة الأجانب من إسبان وبرتغاليين وإنجليز درجة كبرى، حتى أصبح هؤلاء الأشخاص، بعد وفاتهم، محل عبادة وتقديس، وأصبحت أضرحتهم مقصدا لكثير من المواطنين، وأصبحت تقام لهؤلاء الأبطال احتفالات سنوية خاصة ومنتظمة، وأخذت الشعوذة تظهر في هذه الاجتماعات، ونشأ عنها تكوين فرق حمادشة وعيساوة وغيرها، وأخذ المشرفون على بعض هذه الطرق يدعون بأن قطبهم قادر على تمكين المرأة العاقر من

الولادة، كما يدعي آخرون بأن قطبهم قادر على معالجة المرض، وهكذا أخذ المشرفون على الطرق يتبارون في هذا الميدان فتعددت الإدعاءات، وكثرت الخرافات، وأصبح بعض المواطنين يتكتلون حول القطب الذي تتصل به حاجاتهم.

بقايا مجتمعنا القديم في مجتمعنا المعاصر: إذا كانت هذه الظواهر التي رأيناها في مجتمعنا القديم لم تنعدم تماما من مجتمعنا الحاضر، بل لا زال أكثرها قائما، فلأن الاستعمار جعل من بلادنا متحفا وعمل بكل قواه على المحافظة على كل ما وجد من أدواء ومظاهر بالية:

فعندما كنا نحاول إحداث تطور في التعليم كان الاستعمار يقف في وجوهنا معارضا في إحداث هذا التطور، مدعيا أن إدخال أي تحوير على نظام التعليم في القرويين يعد مساسا بالدين الإسلامي، كما كان الاستعمار يعتبر كل مغربي أراد إنشاء تعليم حر وتدريس مواد الحساب والجغرافية والطبيعيات خارجا عن الدين.

لقد كان هذا الادعاء وهذا الاعتبار صادرين عن "بونيفاص"[2] وجماعته الذين أوقفوا أنفسهم لـ "الدفاع" عن الإسلام! وعندما كنا نحاول النهوض بالاقتصاد المغربي وإزالة الفوارق الاجتماعية والقضاء على التعصب المحلي والقبلي كان الاستعمار يعترض طريقنا ولا يعمل فقط لإبقاء هذه الأمراض على ما كانت عليه بل يحاول تشجيعها وإذكاءها كلما شعر بأنها تتجه نحو الاضمحلال.

2- حاكم الدار البيضاء كان من غلاة المستعمرين.

فكل هذه الظواهر الاجتماعية الفاسدة التي عمل الاستعمار على إبقائها في مجتمعنا تبرهن على أن مجتمعنا الحالي مجتمع فاسد وأنه في حاجة إلى إصلاح.

الوعي السياسي: إلا أنه لم يؤثر الاستعمار على ظاهرة مهمة من مظاهر مجتمعنا، وهذه الظاهرة هي الوعي السياسي. ويرجع عدم تمكن الاستعمار من التأثير على هذه الظاهرة الهامة إلى الروح الوطنية التي كانت تملأ نفوس المغاربة طيلة قرون، وإلى ذلك الكفاح الوطني ضد الغزو الأجنبي الذي دام ثلاثمائة سنة، كما يرجع إلى تأخر الاستعمار في التمكن من إخضاعنا سنة 1912 وإلى قصر المدة التي تمكن خلالها المستعمرون من التحكم في بلادنا. فظاهرة الوعي السياسي قوية في مجتمعنا الحاضر. ويمكن أن نقول إنها أقوى عندنا من عدة دول عظمى. رأيت كثيرا من الصحافيين الأجانب يندهشون عندما يرون أجهزة الراديو في جل الأكواخ، و يكاد يوجد في كل بيت من بيوت الصفيح، في الوقت الذي لا يوجد فيه ولو سرير واحد في تلك الأكواخ والبيوت، مما يدل على أن العامل الفقير يقدم شراء جهاز الراديو-لإرضاء متطلبات حاسته السياسية في الاطلاع على ما يجري حوله وفي العالم من أحداث- على شراء سرير يجعله يتمتع بنوم مريح.

وتتجلى ظاهرة الوعي السياسي هذه لدى المغاربة في الوقت الذي نرى فيه الفرنسي أو الأمريكي يشتغل بالسياسة مرة واحدة في بضع سنوات عندما تحين انتخابات الرئاسة أو مجلس النواب. فنحن مرتاحون لهذا الوعي السياسي المغربي كما نحن مرتاحون لحرص المواطن المغربي كل الحرص على حقه مدركا لواجباته كل الإدراك.

الوعي الروحي والاجتماعي : وكان لوجود الاستعمار تأثير في صقل الأفكار الجامدة وجعلها تفكر في أحوالها وما يريده بها هذا الاستعمار. وأول رد فعل وقع في ميدان التحرر هو قيام الحركة الوطنية السلفية-التي كانت تطوان وفاس والرباط وسلا ومراكش من بين منابعها الأولى- وهي التي أبرزت حقيقة الإسلام وجعلت تدعو المواطنين إلى نبذ الخرافات وإلى التحرر من سلطة أدعياء الدين من رجال الطرق والشعوذة. وعقب ظهور هذه الحركة السلفية تبدلت نظرتنا إلى الدين وأخذنا نزيل عن أذهاننا طبقة من الخرافات والقشور التي تكونت فوق لب العقيدة الإسلامية المبنية على حرية المناقشة والتفكير، وأعتقد بأنه لولا وجود هذه الحركة المباركة لتنكر كل شبابنا-الذي تابع دراسته في إسبانيا وفرنسا- للدين. فبفضل هذا الاحتكاك مع الاستعمار ظهرت الحركة السلفية التي بدلت نظرتنا إلى الدين وحفظت شبابنا من الإلحاد وجعلتنا نفهم الإسلام كما تجلى في دعوة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده.

ومن الناحية الاجتماعية أحدث استعمال القوة الكهربائية وقوة الآلات البخارية انقلابا في الصناعة الأوربية حيث تحولت من صناعة فردية إلى صناعة جماعية فوقعت هذه الثورة الصناعية في منتصف القرن التاسع عشر دون أن تتأثر بها صناعتنا. ولم نعرف نحن هذه الثورة الصناعية ولم نتأثر بها حتى أصبحنا تحت سيطرة الاستعمار الذي فتح الباب للرأسمال الأجنبي فتأسست المعامل وفتحت المصانع وأخذ العمال يتجمعون ويوحدون صفوفهم للمطالبة بحقوقهم والدفاع عنها.

وهكذا ترك بعض الفلاحين أرضهم وأخذ أصحاب المصانع البسيطة الصغيرة-المكونة عادة من رب المعمل وعاملين- يتركون مصانعهم

ويعملون بأجرة في المصانع الكبرى حيث القوة الكهربائية وحيث الآلات البخارية. ونتج عن هذا تطور اجتماعي وتفكير جديد وشعور بالحقوق والواجبات أدى إلى خلق وعي اجتماعي أخذ مكانه بجانب الوعي السياسي الذي كان يتمتع به المغاربة منذ عهد ما قبل الاستعمار.

مجتمعنا الحاضر يحتاج على تطور : وبناء على ما ذكرنا فإن مجتمعنا كان فاسدا في عهد ما قبل الاستعمار، وإن الاستعمار عمل على إبقاء الكثير من مظاهر ذلك المجتمع القديم، كما عمل على تحطيم بعضها عندما جمع حوله الدجالين من أدعياء الدين، وعندما فتح الباب في وجه الرأسمال الأجنبي، الأمر الذي أدى إلى خلق وعي اجتماعي وإلى ظهور الحركة الوطنية السلفية. وكما نرى فإن مجتمعنا الحاضر مخضرم يتكون من مجتمع ما قبل الاستعمار ومن مجتمع عهد الاستعمار. ومهما يكن لون مجتمعنا الحاضر فإن نظرة دراسية اجتماعية عميقة ونظرة إلى حالات الشعوب المتخلفة اجتماعيا مثلنا كافية للحكم بأن هذا المجتمع يحتاج إلى تطور وبأن المغرب الجديد في حاجة إلى بناء مجتمع جديد. ولقد أدركنا كما أدركت الشعوب المتأخرة التي لها وضع كوضعنا بأن الاستقلال ليس بغاية في حد ذاته وإنما هو وسيلة للعمل الجدي من أجل بناء مجتمع جديد على أنقاض مجتمع ما قبل الاستعمار ومجتمع عهد الاستعمار.

إذن مهمتنا الأساسية في عهد الاستقلال هي بناء مجتمع جديد. فكيف سنبني هذا المجتمع الجديد؟

كيف سنبني مجتمعا جديدا؟

سنبني مجتمعا جديدا لأننا شعرنا-ويجب أن نجعل كل مواطن مغربي يشعر- بأن الواجب يفرض علينا تحقيق الرفاهية والسعادة

والازدهار الفكري لجميع المواطنين، وأن نجعل من بلادنا قطرا يقوم بدوره الإنساني في ميدان التقدم الفكري والعلمي، ودولة تلعب دورها في العالم، ومغربا يشع بالمعرفة والنور. وأعتقد بأن كفاحنا من أجل الاستقلال سيفقد معناه، ونفوسنا ستفقد قيمتها، إذا نحن أخلدنا لراحة التقاعد، وإذا أصبح جل مواطنينا يتسارعون من أجل إيجاد مظاهر الرفاهية لا أقل ولا أكثر.

إننا في حاجة اليوم إلى خلق حماس في نفوسنا لا يقل عن ذلك الحماس الذي ملأها عندما كانت الدعوة إلى الصبر وإلى التضحية وتحمل السجن والنفي من أجل الوصول إلى الاستقلال. إننا في حاجة لخلق حماس يجعل كل المواطنين يشمرون عن ساعدهم لبناء مجتمع المغرب الجديد. وستنعدم كل قيمة لعملنا كوطنيين إذا اعتبرنا الاستقلال غاية ولم نعتبره نقطة البداية ومفتاحا لخوض معركة أكبر من معركة الاستقلال وهي معركة بناء عهد الاستقلال. لقد أصبحت لدينا الإمكانيات لبناء المجتمع الجديد حيث نتوفر اليوم إلى جانب الوعي السياسي على وسائل القوة البشرية وعلى حرية التصميم والعمل، وبقي علينا فقط تخطيط الطريق. وأرى بأن من الأوفق أن يعرف كل مواطن بدقة الهدف الذي يسعى إليه لكي يتحمس إلى السير نحو ذلك الهدف.

يجب أن نضع صورة تامة لمغرب الغد وأن نمكن جميع المواطنين من الاطلاع على هذه الصورة وأن لا نكتفي بتغيير سطحي بين عهد الاستعمار وعهد الاستقلال، لأن استقلالنا ليس معناه تغيير القبعة بالطربوش واللغة الأجنبية باللغة العربية، وإنما يحتاج إلى تغيير جذري يتناسب مع الكفاح الذي كافحناه من أجل الاستقلال.

لقد حصلنا على الاستقلال لا لتصبح وطنيتنا وطنية تصفيقات وهتافات، بل لنعمل من أجل بناء مجتمع جديد ولنضع للمواطنين الصورة المرجوة لمغرب الغد ونحدد المراحل التي سيتم فيها بناء مجتمعنا الجديد ليعرف جميع المواطنين أهداف ما بعد الاستقلال ويعملون لتحقيق هذه الأهداف، وهذه الأهداف تتلخص في:

- تحقيق الرفاهية والعدالة والمعرفة لجميع المواطنين.
- تحقيق الازدهار الاقتصادي والفكري والاجتماعي في جميع أنحاء البلاد ليتمتع جميع المواطنين بخيرات بلادهم بعدما ضحوا جميعا في سبيل تحقيق هذا الازدهار.

طرق العمل لتحقيق هذه الأهداف

تطوير الفلاحة : إن أول ظاهرة تتجلى في مجتمعنا هي الفقر وانخفاض مستوى المعيشة، لأن معدل دخل المواطن المغربي لا يتجاوز عشرين ألف فرنك (200 درهم) سنويا في البوادي لو قسم المدخول على الجميع. والسبب الرئيسي في هذا الفقر هو اعتماد بلادنا اقتصاديا على العمل الفلاحي الذي يشغل ثلاثة أرباع سكان بلادنا ولا ينتجون ربع الدخل الوطني العام. والسبب في هذا يرجع إلى أن الأساليب والوسائل التي يستعملها المغاربة في الفلاحة بسيطة جدا، وإن المعمرين الأجانب يستعملون طرقا علمية عصرية تؤدي إلى وفرة الإنتاج. ومن كل هذا ندرك بأن محاربة الفقر تفرض علينا تطوير الفلاحة باستعمال الوسائل العصرية للحصول على إنتاج أكبر وثروة أكثر، ليرتفع مستوى المعيشة ويتجاوز المواطن مرحلة كسبه لضروريات قوت يومه إلى مرحلة ما

يحتاج إليه المواطن المعاصر من حاجيات تتناسب مع الكرامة الإنسانية ومع الحياة التي يحياها المواطنون في البلاد المتقدمة.

التصنيع: وإن تطوير الفلاحة وحدها غير كاف لمحاربة الفقر بل يجب التفكير في إيجاد سلاح آخر لمحاربته-خاصة وإن ارتفاع الإنتاج الفلاحي له حد أعلى سيقف عنده وتبقى أيد بشرية عاطلة أو غير منتجة كل الإنتاج. ولنذكر أن عددا من فلاحينا لا يشتغلون سوى بضعة أسابيع في السنة. لذلك يجب التفكير جديا في التصنيع.

وعندما نذكر التصنيع لا نقصد الصناعة التقليدية-التي نريد لها التقدم والتطور المعقول ولكنها محدودة الأثر- وإنما نقصد الصناعة التي تجعلنا في مصاف الدول المتقدمة وتمكننا مثلا من أن نستغني عن جلب عدة بضائع من الخارج تصدر موادها الأولية خامة من بلادنا لتعود إليها مصنوعة.

تنمية الإنتاج : إن تطوير الفلاحة والتصنيع سيعملان بصفة مباشرة لمحاربة الفقر ولتنمية الإنتاج. فالدخل العام المغربي-حكومة ومؤسسات خاصة- يبلغ سنويا 500 مليار فرنك سنويا تقريبا، فإذا قسم هذا المبلغ على مجموع عدد السكان-10 ملايين- فإن حظ كل مواطن سيكون هو 50.000 فرنك. ولكن هذا الرقم ليس بواقعي لأن ثلثي 500 مليار يوزع على ربع السكان، ومن بينهم الأجانب، الأمر الذي يجعل حظ المواطن المغربي المتوسط سنويا هو 20.000 فرنك فقط، كما ذكرنا في أوائل هذا الحديث. وهذا القدر الضئيل هو الذي يدعونا لضرورة العمل في آن واحد من أجل تنمية الإنتاج لرفع مستوى المعيشة ومن أجل التوزيع العادل لمدخول الأمة.

التوزيع العادل : وستكون الإجراءات التي ستتخذ لتوزيع الدخل القومي توزعا عادلا سببا في رفع مستوى المعيشة لئلا يتخم البعض بنصيب وافر ويكاد يموت البعض الآخر من جراء ما يعانيه من حاجة ماسة لسد ضرورياته الحيوية لعدم كفاية نصيبه التافه من هذه الحاجيات.

وهنا يبرز الدور الذي ستلعبه الحكومة في هذا الصدد. وليس معنى التوزيع العادل أن نزيل للمالك أملاكه لنسلمها لجيرانه الفقراء، ولا أن نزيل لأرباب المصانع معاملهم، بل معنى التوزيع العادل أن تقوم الحكومة -مثلا- بفرض ضرائب مناسبة على الأرباح والدخل الفردي فتتحصل من جراء هذا أموال للدولة يمكنها أن توسع الخدمات لفائدة المواطنين كجعل العلاج الطبي مجانا لطبقات شعبية أوسع وبوسائل تتحسن باطراد. فهذه طريقة مشروعة ومنطقية لإحداث نقص نسبي في أموال الأغنياء وجعله كتعويض نسبي لحاجيات الفقراء، وما أدق المثل الصيني الذي يقول: "إذا كان هناك طعام فليأكل منه الجميع".

إن التوزيع العادل لا يعني القضاء على الملكية الفردية وإنما يعني أن تراقب الدولة هذا التوزيع وتحميه من سيطرة الإقطاعية والاحتكارات الخاصة. فعندما نحتاج إلى تطوير الفلاحة عند صغار الفلاحين مثلا فإن هذا التطوير يجب أن يتم بواسطة الحكومة، حيث تشتري للفلاحين الجرارات، وتقدم لهم المساعدات المادية والفنية، وتعمل على حثهم على التعاون ونبذ الروح الفردية، وتناسي الحدود أثناء عملية الحرث ليمكن الجرار من قلب مساحات مناسبة، ولتتمكن الأرض بعد ذلك من إعطاء إنتاج مضاعف يفوق بكثير إنتاج كل تلك الضيعات الصغيرة، لو حرثها كل فلاح على حدة وبوسائله العتيقة عقب نزول الأمطار الأولى.

التعاونيات الفلاحية : وإن من الأهداف التي نريد الوصول إليها من وراء عملية جماعية الحرث هو تعويد الفلاحين على التعاون وعلى نسيان نظرتهم المتعصبة إلى الحدود المحيطة بضيعاتهم، لتتمكن الدولة بعد خمس سنوات من إمداد كل جماعة من الملاكين الصغار بجرار ليصبح ملكا لها مقابل التعهد بتنفيذ شرط واحد وهو القيام بصيانته، وتكوين جمعية تعاونية تقوم بتوحيد التكاليف وتخفيفها، وتكوين ميزانية عامة لهذه الجمعية، ذلك ما سيساعد على خلق مجتمع متعاون متضامن، وسيحقق التعاون الصادق بين مجموع صغار الفلاحين، هذا التعاون الذي سيحول ضعفهم إلى قوة ويضاعف إنتاجهم عدة مرات وسيؤدي إلى رفع مستوى حياتهم.

التعاونيات الصناعية: ويجب أن يشمل نظام التعاونيات الميدان الصناعي أيضا. فلقد نشأت صناعات في أوربا منذ 120 سنة وسيطرت عليها الرأسمالية وأصبحت وسائل الإنتاج ملكا خاصا لمجموعة من الأفراد. وفي المغرب لا توجد عندنا هذه مشكلة في الميدان الوطني لأن أغلبية المتمولين الساحقة عندنا لا يملكون إلا بعض الأراضي، أو البيوت يؤجرونها، أو تراهم ينهمكون في التجارة غير المنتجة ولا يهتمون مطلقا بالتصنيع، مما يدعو الدولة المغربية إلى تبني مشاريع التصنيع الأولى في البلاد والقيام بها في نطاق أوسع.

وفعلا لقد تأسس مكتب للتصنيع في وزارة الاقتصاد الوطني مهمته العمل على إيجاد الصناعات وتأسيس الشركات بمساعدة الأموال الأجنبية التي نحن في حاجة إليها، ونشترط لجلبها شرطا أساسيا واحدا فقط هو الاحتياط من كل سيطرة سياسية مباشرة أو غير مباشرة.

ولتوسيع نطاق التصنيع ببلادنا يجب إيجاد روح التوفير وتشجيع التعاونيات الصناعية التي تجعل المواطنين المغاربة يساهمون بأموالهم في تأسيس المعامل حيث تتكون قوة تعاونية جديدة في ميدان التصنيع تساعد على محاربة الفقر ورفع مستوى معيشة سكان هذه البلاد.

اهتمام بشؤون التعليم: وإن من بين العوامل التي جعلت مجتمعنا متأخرا: إهمال التعليم. ولهذا الغرض يفرض علينا واجب بناء مجتمع متقدم، الاهتمام بالتعليم للقضاء على الفقر الذي نعانيه من قلة المعلمين ومن ضعف الإطار الفني لتسيير شئون البلاد. وليس يجب علينا الاهتمام بإيجاد المعلمين وتكوين الإطار الفني فقط بل يجب علينا العمل لإصلاح التعليم وتطويره. فالدول لا تبنى على مظاهر خارجية كالحفلات والحراقيات والاستعراضات فقط، وإنما تكون الدولة دولة حقيقية عندما تتوفر على مجموعة كبرى من العلماء والباحثين والمهندسين الذين يسيرون شؤونها ويخرجونها من طور التبعية والعبودية إلى التحرر الفعلي.

ولأضرب لكم مثلا بالفنيين الذين يسيرون الآن مرافق حياتنا. هل تعلمون أن بلادنا تتوفر على 2.000 مهندس ليس فيهم من المغاربة لحد الآن سوى 200 على أكبر تقدير مما يدل دلالة واضحة على أن المسافة بيننا وبين تكوين الإطار الفني لا زالت طويلة.

شروط النجاح

إذن فبتطوير الفلاحة وتصنيع البلاد وتنمية المدخول القومي وتوزيعه توزيعا عادلا، وبإيجاد التعاونيات في الميدانين الفلاحي والصناعي، وبتطوير التعليم والإسراع بتكوين الإطارات العلمية والفنية سنعمل على

تحقيق أهدافنا ليتمتع جميع المواطنين بالرفاهية والعدالة والمعرفة ولتمتع بلادنا بالازدهار الاقتصادي والفكري والاجتماعي.

الإيمان بضرورة بناء مجتمع جديد : ولقد أدركنا من خلال ما تقدم لنا من الحديث بأننا في حاجة إلى بناء مجتمع جديد لأن مجتمعنا الحالي لا يتناسب مع عهد الاستقلال. ويمكن لمعترض على هذا الرأي أن يقول: إن استقلالنا لازال حديث العهد لم تمر على ميلاده سوى سنتين ونصف، ولا زالت تنقصه أركان مهمة كجلاء الجيوش الأجنبية عن ترابنا وتوحيد هذا التراب بعد إتمام تحرير باقي مناطقنا المحتلة من طرف كل من إسبانيا وفرنسا، الأمر الذي يجعل الشروع في هذا البناء سابقا لأوانه.

وإجابة على هذا الاعتراض أقول: إننا لا نريد أن نهيم في الطريق دون أن نعرف الهدف الذي نتجه إليه، بل يجب أن نعرف إلى أين نسير ونحدد الطريق ونؤمن بالأهداف التي نسعى إليها قبل بدء السير في تحقيقها. فنحن ندرك تماما بأنه ينتظرنا بذل مجهود كبير لتكون بلادنا في صف الدول التي لها كرامة، وأن من بين الأسس الرئيسية التي يجب أن تتوفر لدى دولة تشعر بكرامتها لهو المجتمع الواعي الصالح.

ونظرا لعدم توفر مجتمعنا الحاضر على عناصر الصلاحية حسب ما تقدم إيضاحه، من عوامل موروثة عن مجتمعنا القديم وعن الحكم الاستعماري، فإن الواجب الوطني يفرض علينا الإيمان بضرورة بناء مجتمع جديد. فإذا ما آمنا بضرورة بناء هذا المجتمع الجديد كأفراد، ثم آمنا كحزب، فإننا سنجند أنفسنا لتحقيق هذا البناء كما سنكون على يقين بأن الأمة بمجموعها ستتجند لهذا الغرض.

وأعتقد بأن بناء المجتمع الجديد هو جهادنا الأكبر، بعدما قمنا بأداء فريضة الجهاد الأصغر أثناء الكفاح العام من جميع المواطنين، والعمل بحماس من أجل الوصول إلى الأهداف وتقديم كل تضحية ممكنة في هذا السبيل.

مجتمع تقدمي متفتح: إننا لا نعيش منعزلين في هذا العالم، بل نعيش مع عدة شعوب كافحت مثلنا من أجل الاستقلال كالهند والصين وإندونيسيا ومصر والعراق، ووجدت نفسها أمام المشاكل التي وجدنا أنفسنا أمامها وعلى رأسها ضرورة بناء مجتمع جديد.

ويجب أن نقضي في عهد الاستقلال على روح الانعزال التي فرضها علينا الاستعمار في الماضي وأن نؤمن بضرورة بناء مجتمع متطور تقدمي متفتح للتيارات المغذية، لا مجتمع رجعي جامد. وأن نكون على اتصال بتلك الشعوب التي تعاونا معها أيام محنتنا، وخاصة التي تربطنا بها أواصر التاريخ والجغرافيا والحضارة وأن نكون معها رابطة قوية يساند بعض أعضائها البعض الآخر لنتمكن من اجتياز مرحلة الجهاد الأكبر بنجاح، ولنتمكن من السير في طريقنا لبناء مجتمع جديد.

وهنا يمكن أن يلقى علي أحدكم هذا السؤال: هل تضمن السير الناجح في هذه الطريق؟

إن لنجاح السير في هذه الطريق الطويلة شروطا ضرورية، لأن الانقلاب والتغيير لا يمكن وقوعه بين عشية وضحاها ما دامت المعجزة غير ممكنة، وما دمنا لا نتوفر على عصا سحرية قادرة أن تحول بضربة واحدة جهلنا إلى علم وتأخرنا إلى تقدم، ويمكن أن نستنتج الشروط الضرورية للنجاح في السير أثناء هذه الطريق الطويلة من تجارب الأمم التي كانت لها وضعية مثل وضعيتنا.

فإذا ألقينا نظرة على أحوال هذه الأمم نجد أن هناك ثلاثة شروط أساسية كتب النجاح لكل أمة قامت بتطبيقها كما كان الفشل حليف من لم يجعلها أساسا لعمله الوطني.

إنها شروط ثلاثة يجب أن يحققها كل شعب جعله الاستعمار متخلفا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وفكريا:

- التوفر على قيادة حكومية شعبية مخلصة قوية حكيمة تفرض احترامها على المواطنين بإخلاصها ونزاهتها وكفاءتها.

- وضع التصميمات لتحقيق التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعمل على تنفيذ هذه التصميمات بدقة.

- مشاركة الشعب في وضع وتنفيذ ومراقبة هذه التصميمات وذلك بواسطة المؤسسات الديموقراطية من مجالس قروية وبلدية ومجلس وطني منتخب.

القيادة المخلصة القوية: يجب أن تتكون القيادة القوية الحكيمة المخلصة سواء في الحكومة أو المنظمات الشعبية من مواطنين حنكتهم التجربة أيام المحنة الوطنية، وأثبتت السنوات كفاءتهم ومقدرتهم على مواصلة السير نحو الأهداف التي تتطلب مصلحة البلاد العليا تحقيقها.

ومعنى القيادة الحكومية هي أن تكون الحكومة المسؤولة قوية في جميع مرافقها، قوية بعمالها وبجيشها وشرطتها ومحاكمها، قادرة على تسيير شؤون البلاد تسييرا حازما دقيقا وعلى فرض احترام سلطتها على جميع المواطنين بحزمها وإخلاصها ونزاهتها وعملها الجدي المتواصل.

التصميم للقضاء على التخلف: رأينا كيف أن انخفاض مستوى معيشتنا يفرض علينا العمل المتواصل لرفعه، يفرض علينا التكثير من

الإنتاج الفلاحي، ويفرض علينا تصنيع البلاد وترقية الصناعة التقليدية ونشر التعليم وتطويره وتعميمه. وفي قضية التعليم لا يمكن نشر التعليم وتطويره وتعميمه بدون وضع تصميمات-فلا يعقل أن نستمر في بناء المدارس وفتحها لنسلم أبناءنا إلى معلمين يمكن أن يقال عنهم إنهم لا يفوق مستوى بعضهم مستوى تلامذتهم إلا بقليل- لأن القيام بعمل مثل هذا يعد من باب الإجرام، ولأن جميع أولئك التلاميذ لن يتعلموا تعليما جيدا، الأمر الذي سيتضررون منه ويجعل آباءهم ينعتون التعليم في عهد الاستقلال بالضعف والانحطاط، بينما التصميم يساعدنا على الخروج من المأزق الذي نحن واقعون فيه إلى حالة أحسن في مدة محدودة من الزمن.

كما أن تقديم إرضاء الحاجيات المستعجلة يرجع إلى ضعف إمكانياتنا المادية، فحالتنا كحالة مريض ظهرت في جسمه عدة أدواء-داء الكبد وداء الأمعاء الخ- واحتار في أمر معالجتها أو في إعطاء الأسبقية لإحداها، وخاصة أنه لا يملك من نفقات العلاج سوى 10.000 فرنك- مثلا. فإذا ذهب لعيادة طبيب وأخبره بأدوائه وبما يملكه من مال لعلاجها فإن أي طبيب عاقل لا يسمح له بإنفاق جزء من المال على كل داء، لأن هذا التقسيم لا يفيد مطلقا أي داء، بل يهتم بأشد الأدواء خطورة فيبدأ بمعالجته، ثم يعالج الداء الذي يليه خطورة وهكذا. فالتصميم ضروري عند تعدد الأدواء وقلة الإمكانيات وهو الطريق الذي تسلكه عدة دول لضمان إصلاح تخلفها الفكري والاقتصادي والاجتماعي.

مشاركة الشعب بواسطة المؤسسات الديموقراطية : بعدما تحدثنا عن الشرطين الأول والثاني نعود الآن للشرط الثالث الذي يجب أن يتوفر للتمكن من بناء مجتمع جديد. وهذا الشرط هو مشاركة الشعب

في وضع وتنفيذ ومراقبة التصميمات. ويمكننا أن تساءل ما هي الكيفية التي سيشارك بها الشعب في وضع وتنفيذ ومراقبة التصميمات؟

إن هذه المشاركة الصحيحة ستكون بواسطة إيجاد المجالس القروية والبلدية ومجلس وطني منتخب يراقب تطبيق بنود الدستور ويراقب سير الحكومة ويحاسبها على أخطائها، إذا ما ارتكبت أخطاء، ويحقق التوازن المنشود بين الحاكمين والمحكومين. ولا يتأتى للشعب أن يشارك بهذه الصورة إلا إذا كان منظما متكتلا داخل هيئاته السياسية والنقابية المبنية على التربية الوطنية الصحيحة.

هل تتوافر هذه الشروط لدينا ؟

فهذه الشروط الثلاثة ضرورية لنتمكن من التخلص من مجتمع ما قبل الاستعمار ومجتمع عهد الاستعمار ومن بناء مجتمع جديد يضمن العزة والكرامة والرفاهية والازدهار لجميع المواطنين. لقد نجحت كل الدول التي اتخذت هذه الشروط أساسا لتحقيق التطور وفشلت غيرها من الشعوب التي تهاونت في تحقيق هذه الشروط وظلت تتعثر في طريقها وتتلقى خلالها أقسى الضربات.

هل تتوافر لدينا اليوم هذه الشروط؟ ففيما يتعلق بالقيادة فأعتقد أننا لازلنا لم نتوفر عليها لحد الآن لأن الحكومتين الأوليين (=برئاسة البكاي) كانتا مبنيتين على أساس توازن صوري، كما أن الحكومة الحالية (برئاسة بلافريج)-التي تكاد تتكون كلها من إخواننا في الحزب- لا تتوفر على الوسائل الكافية لمباشرة مسؤولياتها كاملة حتى تتمتع بالسلطة اللازمة في البلاد. ويجب أن نكون يقظين للعمل على تحقيق هذا الشرط الضروري وإلا سنكون قلقين على مستقبل المجتمع الذي يجب أن تتوفر الشروط الثلاثة لبنائه، وأعتقد بأن كل تهاون في تحقيق هذا الشرط سيجعلنا نسلك طريقا غير قويم. وكان ذلك هو الباعث على المطالبة بهذا

الشرط في بلاغ اللجنة السياسية (لحزب الاستقلال) بتاريخ 20 أبريل 1958 عندما حددنا شروط قبولنا كحزب لتحمل مسؤولية الحكومة. ولكن الحكومة لم تتألف وفق هذه الرغبة وبقيت مسؤولياتنا بسبب ذلك منعدمة.

أما ما يتعلق بالشرط الثاني فأعتقد أننا نسير في طريق تحقيقه وأننا قطعنا خطواته الأولى عند دراسة المجلس الوطني الاستشاري لتصميم سنتي 1958-1959 الذي يعتبر خير مقدمة نحو تصميم عام في ميادين الفلاحة والصناعة وتكوين الإطارات، لقد وضع ليمهد في مدة عامين تصميمات السنوات الخمس التالية. وإذا ما نفذ هذا التصميم بدقة فسيستحق الهدف من وضعه ويجتاز بنا فترة الانتقال من عهد الاستعمار إلى عهد الاستقلال، كما سيمكننا من وضع يدنا على زمام اقتصادنا في السنوات القادمة.

أما فيما يتعلق بتحقيق مشاركة الشعب عن طريق إيجاد المؤسسات الديموقراطية وفق الرغبة المشتركة بين الملك والشعب فإن تحقيق هذا الشرط لا زال في طور المشاريع وله ارتباط بالشرط الأول.

ويتساءل كثير من المواطنين: هل يؤيد حزب الاستقلال إيجاد المؤسسات الديموقراطية أم لا؟

وللإجابة عن هذا السؤال أود أن أقول: إن حزب الاستقلال الذي عذب أعضاؤه العذاب الكافي من أجل الحرية لا يمكنه مطلقا أن يكون ضد الديموقراطية، فحزب الاستقلال يؤيد إيجاد المؤسسات الديموقراطية وذلك بإنشاء المجالس القروية والبلدية ومجلس وطني منتخب.

الشروط متماسكة الحلقات: ولكن أريد أن أنبه إلى أن تحقيق هذا الشرط الثالث لا يتأتى إلا إذا حقق الشرط الأول لأن إيجاد المؤسسات الديموقراطية قبل إيجاد قيادة قوية حازمة-تقطع دابر الخونة وتقضي على مناوراتهم وعلى كل مؤامرة أجنبية- قد يؤدي بالبلاد إلى الفوضى والاضطراب. فلا يمكن إيجاد المؤسسات الديموقراطية مادامت محاكمة

عدي وبيهي لم تتم، وما دامت بعض المؤامرات لازالت تدبر وتشجع من بعض الجهات، وما دامت الحكومة لا تتوفر على سلطة حقيقية تامة في ميدان الشرطة مثلا، بينما تتوفر إمكانيات للأيادي الأجنبية لإنفاق الأموال من أجل نخر كياننا والسير بنا في طريق الفوضى والخراب.

إن هذه الشروط الثلاثة تكون سلسلة متماسكة الحلقات فبدون قيادة حكيمة قوية وحازمة لا يمكن إيجاد المؤسسات الديموقراطية، وبدون قيادة قوية ومؤسسات ديموقراطية لا يمكن تنفيذ برامج اقتصادية واجتماعية بعيدة المدى.

الأداة الفعالة

لقد حصلنا على الاستقلال كوسيلة لتحقيق التقدم والتطور ولبناء مجتمع جديد يحقق للشعب المغربي الرفاهية والازدهار الفكري والاقتصادي والاجتماعي ويخلق في البلاد روح التعاون التي تكسب القوة للضعفاء.

ولكن بناء هذا المجتمع يتطلب إيجاد قيادة قوية وتصميمات اقتصادية ومؤسسات ديموقراطية، وتحقيق هذه الشروط الثلاثة يتطلب خلق وعي يؤدي إلى جعل طبقة هامة من الأمة تشعر بهذه الحاجيات وبضرورة تحقيق هذه الأهداف. وإننا اليوم في حاجة إلى أداة فعالة لخلق الوعي في الشعب كما كنا في حاجة في الماضي لأداة لخلق الفكرة الوطنية ولنشر التربية الوطنية، هذه الأداة التي قامت بالكفاح السياسي والكفاح المسلح والكفاح النقابي.

وأعتقد بأن الأداة الجديدة يمكن أن تكون هي نفس أداة الأمس، ولكن مع تغيير وسائل العمل لأن المعركة اليوم غير معركة الأمس. فلقد خضنا بالأمس معركة من أجل الاستقلال ويجب أن نخوض اليوم معركة سلمية من أجل بناء مجتمع جديد. ولكن تلك الأداة التي كانت صالحة بالأمس للحرب يجب أن تتحول لتصبح اليوم صالحة لوقت السلم.

لذلك فإن هذه الأداة لن تكون صالحة إلا بعد إحداث تحوير فيها، لأن حزب الاستقلال الذي صنع الأبطال والمكافحين أثناء معركته مع الاستعمار يجب أن يصنع الأبطال المكافحين لخوض المعركة من أجل بناء مجتمع جديد في مغرب جديد، وسيكون مثله في هذا كمثل معمل أخذ ينتج أيام السلم الجرارات والآلة الكاتبة بدل إنتاجه للدبابات والآلات الفتاكة في أيام الحرب.

وهذا الدافع يجعلنا نشعر بضرورة إحداث انقلاب داخل حزبنا يجعله قادرا على القيام بمهمته الجديدة. فينبغي أن يتكون لدى جميع العاملين الشعور بالحاجة إلى **الانقلاب داخل الحزب**، لأن هذا الشعور سيجعلنا ندرك بأننا في طريق تحقيق هذا الانقلاب. فالواجب علينا أن نعمل لتكوين الأداة الجديدة التي تعد أبطال معركة بناء مجتمع جديد، **وهذه الأداة هي حزب الاستقلال بعدما يتجدد في تفكيره وأسلوبه وبرامجه**[3]. وإن الشرط الأساسي لتحقيق هذا الانقلاب لهو ضرورة العمل بنفس الروح الثورية التي كانت تملأ نفوس جميع المكافحين المخلصين أثناء معركتنا مع الاستعمار، لنتجند من جديد للعمل بحماس كبير من أجل بناء المجتمع الجديد. والله ولي التوفيق والسلام".

العدد القادم

الجزء الثاني

المهدي بن بركة: الحاضر/الغائب

النقد الذاتي، مؤتمر شعوب القارات الثلاث ... والاختطاف !

3- التشديد مني م. ع. ج.